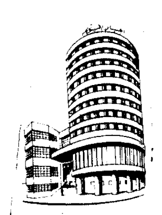
سر الأسرار

بقلم دكتور
محمد حسن عبد الله
أستاذ النقد بجامعة الكويت



الغلاف
بريشة الفنان الكبير
الاستاذ حسين بيكار

● تقـديم ●

علاقة قديمة



على طريق الفن شجعان ، لست واحدا منهم ...
أذكر هنـا توفيق الحكيم .. رائد الفنين المسرحى والروائى ، الذى ذهب الى باريس باحثا عن الدكتوراه فى القانون ، فجلس أمام فتاة شـباك مسرح الاوديون ، وكتب لنا « عودة الروح » و « أهـل الكهف » .. ولم يحفل بالدكتوراه ، وترك الحسرات لوالده ..
وأذكر نجيب محفوظ ، الذى سجل رسالة الماجستير فى الفلسفة ، ولكنه بعد تجاربه الاولى فى مجال الرواية ، أحس باستبداد الفن ، وبأنه لا يستطيع أن يعيش مزدوج الولاء ، فكان أن ألغى التسجيل ، وتخصص فى الفن وحده ، وصارت الفلسفة بعدا من أبعاد أعماله الفنية ..

ولقد صار أدب هذين الاديبين الكبيرين موضـــوعا لعديد من رسائل الدكتوراه والماجستير التي انصرفا عنها في مطلع حياتهما ٠٠

فهؤلاء ، وربما غيرهم ، شجعان ، لم أكن واحدا منهم ٠٠

★★★

فلعلك عرفت الآن أن « علاقة قديمة » ليس عنوانا لاحدى قصص هذه المجموعة ، على النحو المألوف ، وانما هي تعبير واجمال لعلاقتي بالفن القصصي ٠٠ ليس زهوا مني أن اذكر أنني نلت الجائزة الاولى للقصة القصيرة على أكثر من ستمائة وخمسين متسابقا سنة ١٩٥٨ وكنت ما أزال طالبا بالجامعة ، ونلت الجائزة الاولى للرواية سنة ١٩٦٤ ٠ ولكنه الالم أو الندم أنني لم أستمر ، وشغلتني الماجستير والدكتوراه ، ثم تدريس النقد الادبي في الجامعة ، وما يلقى على المشتغل به من حرج وحذر وتهيب ، فكما ترى : انني تركت الاصل واتجهت الى الفرع ، ولكن الفن قدر غلاب ٠٠ ظل يعاودني محاولا اكتساح كافة المخاوف ، الى أن انتصر ، أو يوشك أن ينتصر ٠٠

ومن هنا كان الالتفات الى تلك القصص التي انتخبتها مما سبق نشره في صحف مصر ولبنان والكويت ٠٠ وليس تقديمها اليك بمثابة بحث المفلس في دفاتره القديمة ، وانما كما يقدم السفير أوراق اعتماده ، أن ابراز تاريخية العلاقة بين « الدولتين » هو أقوى حوافز الاستمرار ٠٠ ستفطن الى أن بعض القصص قديم جدا ، يكفي أن نقرأ في احدى القصص : « فبدأ كأكثر شوارع الدقي ٠٠

خاليا من الناس موحشا ، لنعرف أن هذا الوصف قد انقرض ، لان الدقى الآن لا يختلف عن القلعة مثلا ٠٠ ركام بشرى لاينتهى ، بل تصف احدى القصص رجلا طويلا بأنه مثل « سيمافور غمرة » لقد اختفى السيمافور ، وحل مكانه نفق شهير ، وفى القصة نفسها أن حسنى صعد مع ابنة خالته الى الاتوبيس وهذا أمر لم يعد ممكنا الآن ٠٠ وفى قصة أخرى نسهر مع أم كلثوم ليلة الجمعة ٠ بل ان قصة بأكملها استمدت موضوعها من « معدية » كانت موجودة فى منتصف المسافة بين « كوبرى » المنيل و « كوبرى » الملك الصالح قبل أن يوجد الاول ٠ ولكنى لم أغير من هذه التعبيرات شيئا ٠٠ ليس لمجرد الصدق بمعناه الحرفى ـ لا الفنى ـ فقط ، وانما أيضا لان هذه التعبيرات ليست جوهر القصة ، فقدرتها التحليلية ومغزاها الانسانى لا يتوقفان عند الوصف الظاهرى أو يحددان به ٠

وبعد ٠٠٠ فهذه بعض ملامح علاقتى القديمة بالفن القصصى ، التى أصر على احيائها ، بعد الانتهاء من تقديم أوراق الاعتماد ، التى آمل أن تكون مقبولة ٠٠

د٠ محمد حسن عبد الله
استاذ النقد بكلية الآداب جامعة الكويت

سر الأسرار!



... ومع ذلك جاء اليوم الذى فتحت فيه شبابيك الدار الصغيرة ، التى أوشكت أن تنطمر فتحاتها بتراكم التراب أمامها ، وانطلقت منها سحب دخان أبيض لطيف يحمل فى طياته رائحة بخور عطر تجذب الانوف التى اعتادت رائحة السباخ ودخان المدامس . وفى الوقت نفسه يعمى عين الحاسد الذى لابد أن ينطوى عليه هـذا الجمع الداهش الذى ينظر بعيون مسحورة لدار خالتى فطومة ، وقد دبت فيها الحياة فجأة بعد اظلامها الطويل، وتصاعدت منها نداءات فطومة وابنها حـامد بعد أن غيبتهما السنوات المتلاحقة .

ومع أن حامدا هو هو لم يتغير فيه شىء .. اذا صرفنا النظر عن البدلة والشـعر المسبسب ، ومع أن خالتى فطومة هى هى كما اعتادها الناس وكما ارتسمت فى خيالهم لسنوات طويلة .. فان أحدا لم يصدق بسهولة خبر عودتهما .. وعلى تلك الصورة !! ولم تستطع خالتى فطومة بفستانها الاسود قطيفة الزبدة ، والشنطة

القميع . والسنة الذهبية التي تبرق في عين محدثها ٠٠ لم تستطع ان تمحو من أذهان الناس صورتها القديمة ٠٠ المألوفة لهم ٠٠ وقد عقدت ذيل جلبابها الاسود حول خصرها ، وظهر هناك ـ تحت الركبة بقليل ـ كرنيش السروال الاحمر الفاقع ، وقدماها المعروقتان تثيران من حولها زوبعة خفيفة من الغبار الحار . وهي لا تزال تنادي بصوتها المدوي في حارات القرية كل ظهيرة « لوبيا يا فجل ٠٠ لوبيا ٠٠ !! » والمشنة الخضراء يسيل ماؤها على وجه خالتي فطومة فتمسحه بيدها ، بأن توزعه على وجهها بين كل نداء ونداء ٠

وفي الحق كان ظهور حامد وامه وملحقاتهما على تلك الهيئـــة الغريبة مثار دهشة القرية كلها ، وتساؤلاتها ٠ ولقد راح الاطفال والصبيان يتحدثون من جديد عما كان أشيع حول الدار وسكانها من الجن ابان انغلاقها الطويل ٠٠ ولقد أقسم الكثير من الناس أنهم سمعوا العفاريت تتصايح في غرفاتها اذ يهبط الليل ، وأنها توقد سرجا باهرة ترى على ضـــوئها العابرين وتعاقبهم بالمس وأحيانا بالموت اذا ما تعاظم الذنب ٠٠ وقد انتهى الامر بالدار الصغيرة أن قل المرور أمامها في النهار ٠٠ وصار في الليل من المستحيلات ٠٠ حتى الشيخ رضوان ٠٠ حافظ كتاب الله ٠٠ يسلك الى المسجد طريقا دائريا طويلا ولا يمر بالدار اذا ما أراد رفع أذان الفجر !!

ويظن بعض الصبيان أن حامدا ليس الا عفريتا من عفاريت الدار المهجورة أراد أن يخدع الناس عن حقيقته فاتخذ صورة غير مألوفة ٠ ويعترض صبي آخر قد اخضر شاربه :

ـ طيب ٠٠ وأمه ؟

ـ أمه !! هي الاخرى عفريتة !!

ويقول صبي في يده « لوح » الكتاب :

ـ العفاريت لا تؤذي المسلمين ٠

وتهمس احدى النساء الواقفات على مدخل الحارة يرقبن الدار في استغراب :

– والنبى ما غير انه تاجـــر فى المحروق ·· واغتنى على قفا المساطيل ·

وتميل أخرى لمعارضتها وأن كانت لا تملك ايضاحا للترف البادى فى هيئة فطومة وابنها :

– مساطيل ايه ياشيخة ؟ والحكومة فين ؟ كان زمانه فى طوكر من بدرى !!

– يمكن اغتنى من زمان وخبا فلسوسة لما الحالة هديت ·

ولمحتهم خالتى فطومة ، فخـــرجت اليهم تتمايل فى تيه يغلبها وتحاول أن تواريه ، وينم صوتها على كامن رغبتهـــا فى تأكيد رفاهيتها :

– اتفضلوا يا ستات ··

واضطرب جمع النساء للمفاجاة ·· مفاجاة النداء بـ « ستات » ومفاجاة هيئة فطومة نفسها ، وعادت تقول :

– اتفضلوا اشربوا الشاى معانا ·· احنا نسينا بعض ولا ايه :

وبعد دقائق كانت دار خالتى فطومة تعج بخليط كقطيع الغنم ·· من النساء والصـــبيان والاطفال · وكانت تلك لحظة العمر بالنسبة لها ·· لعلها لو ماتت بعد تلك اللحظة بساعات ما خالط قلبها أدنى درجات الشك فى أنها نالت من الدنيا كل ما تشتهى ·· فقد شمرت عن ساعديها ·· فأعدت الشربات ووزعت الملبس والحمص على الاطفال والحلقان التى جلبتها من رصيف محطة طنطا على البنات وخمسة وخميسة للرضع ·· وزجاجات الكحل للعجائز ·· وأطلقت أحداهن زغرودة مستبشرة ، اهتز لها قلب خالتى فطومة ، فانطلقت الزغاريد فى أرجاء بيت عتيق مهـــدم ظل مغلقا أكثر من خمس سنوات ·

أما حامد فقد كان يجلس على حافة المصطبة فى الحجرة التى تواجه باب الدار مرتديا بيجاما من الحرير والى جواره زوجته ·· صغيرة فاقعة الالوان كأنها عروس المولد ، وبين يديه ابنته ناهد ·· رقيقة ناعسة ملائكية ·· كأنها نتوس ·· والتواضع الصامت مسيطر على

الثلاثة . وبسمة خجول تلوح على فم حامد وزوجته ، ونظرة حائرة دهشة تلوح فى عينى ناهد الصغيرة التى حارت فى تفسير الزغاريد .. كما حارت فى تفسير اعجاب النساء بها .. ومضت ساعة وساعة واكواب الشربات تحيى كل قادم جديد يضاف الى الموجودين الذين استمرأوا التفرج على المفاجأة التى لم تكن فى حسبان أحد . وأحس حامد بالتعب فوارب الباب واستلقى .. ربما لم يكن التعب داعيه للاستلقاء !! لقد كان فى حاجة لان يحلم .. لان يتملى على مهل وضعه الجديد .. أن يستعيد ماضيه ويضع صورته أمام حاضره .. وحين يبدو له الفرق أكبر من خياله .. شاسعا .. كان يقبل ظهر يده فى رضا وحمد تؤكده دقات قلبه الواجف . أما الست أم ناهد فقد انطلقت لتشارك حماتها فيما تقوم به حيال جيرانها القدامى ، ولقد صدمها ـ أول الامر ـ مظهر من تقدم لهن الشربات وتسعى لتحيتهن، ولكن عينيها الجميلتين سرعان ما ألفتا المنظر القاسى واستمرأت التواضع ، بل وجدت له مذاقا طيبا يغرى بالمزيد ويكمل جمالها وهندامها المحبب ، فراحت تبالغ فى ازجاء التحيـــة والتودد حتى ليظن من يراها أنها بنت الحارة أبا عن جد .

أما الصغيرة ناهد فقد ازعجتها الاصوات الصاخبة في الدار الصغيرة، فانصرفت الى ذراع والدها فتوسدتها .. ثم نهضت الى حقيبة ثيابه ففتحتها واخذت منها كتابها العزيز الذى حوى الصـــــور الملونة لحيواناتها الاثيرة وراحت تقلب صفحاته . ولكن حكايات جدتها لجيرانها ما لبثت أن جذبت أذنيها ، فاعادت الكتاب وامسكت بثياب جدتها وتابعتها فى انطلاقها بين الحجرتين الحقيرتين .. ثم أفلت ثوب الجدة من يد الصغيرة ، فوجدت نفسها بين أطفال الحارة الذين تطلعوا الى فستانها بتعجب .. فابتسمت .. فقالت طفلة : تعالى نلعب يا اسمك ايه ..

فاجابتها ناهد وهى تنطلق معهم الى الخارج : قولى لى يا ناهد .. وأنت اسمك ايه ؟

وطالت ظلال البيوت والاشجار ، وارتفعت أصوات أبى قردان



على ذوائب النخيل وارتقى الشيخ رضوان مئذنة المسـجد وراح يراقب قرص الشمس تارة وساعته تارة أخرى . وحين استطاع التوفيق بينهما تنحنح مرتين وضغط عنقه قليلا الى الخلف كديك يتأهب للصياح استعدادا للأذان ٠٠ وحينئذ ظهر فى مدخل الحارة مصطفى أبو خريشة وأمامه ابنه منصور ساحبا النعجة والجاموسة معا ٠٠ وما كاد يلمح فى غبش الغروب مشهد الحركة أمام دار فطومة حتى انخلع قلبه . وقفز من فوق حماره وهو يخمن مايمكن أن يكون قد حدث ٠٠ حقا ٠٠ كيف تفتح الدار بعد خمس سنوات دون أن يكون هناك حادث مكدر ؟! ولأنه صاحب الدار المواجهة فالغالب أن يكون ذلك مع زوجته أو أحد أطفاله الصغار !! « يخرب بيتهم ٠٠ كم حذرتهم من هذه الدار الملعونة » ، قالها مصطفى في نفسه وهو يعدو نحو دار فطومة فى خطوات واسعة ٠ ولكن قبل أن يمس عتبتها قابلته الضحكات المتصاعدة كأنها رايات الامان !! وانعقد لسان مصطفى أمام غرابة الخبر ، فليكن مذهولا !! هل يمنعه ذلك من ملاقاة صديقه القديم ؟! وهكذا اتجه من فوره الى حيث استلقى حامد، وطرق الباب برفق ، وبعد لحظات كانا فى عناق حار قطعته خالتي فطومة لتؤدي واجبها المعبود فى تقديم الحلوى والفاكهة الى مصطفى الذى جلس الى جانب صديقه مشتت الخاطر بين الانبهار بمنظر حامد وثيابه وحديثه وبين جودة الفاكهة ودسامة الحلوى !! واذا كان حامد مهتما باظهار التودد وازالة الوحشة والتهيب من نفس صـديقه القديم ، فقد كانت هناك نقطة تشابك بين خواطرهما البعيدة فى تلك اللحظات ٠٠ برغم بعدها لا يمكن تجاهلها ٠

كانا ـ حامد ومصطفى ـ صديقين منذ الصبا الباكر ٠٠ صداقة تفرضها جيرة الحارة ، والطريق الذى يقطعانه معا كل صـباح قاصدين المدرسة فى القرية المجاورة وبعد أن أمضى الصغيران عامين انقطع مصطفى عن المدرسة . منعه أبوه لان : « احنا لنا أرض ٠٠ نفلحها كويس وهى تطرح لنا دهب » أما حامد فلأنه ليس له أرض ينقطع لزراعتها فقد استمر فى الذهاب الى المدرسة ست سنوات

كاملة .. ولماذا ينقطع وأمه تسرح كل يوم بمشنة الفجل وتعطيه قرشا صباح أكثر الايام .. فان لم يكن فبيضة مما تبيع به !! ويظل حامد راضيا بوضعه هذا غافلا عن نفسه الى أن .. يحب !! ويحب من ؟ زينب .. رفيقته فى المدرسة . وبنت شيخ خفر القرية التى بها المدرسة وتكتسب المدرسة عند حامد معنى جديدا وأهمية مضاعفة. ويظل فى تلك القرية الاخرى طول يومه بين المدرسة والحومان حول دار المحبوبة . ولكن شباب القرية لا تعجبهم خطوة الغريب وتجواله ، فيتربصون به وينال من عصيهم قدرا طيبا لولا بناؤه القوى لخلف به آثارا لا تنمحى . ويستنجد حامد بصديقه مصطفى ليعينه على الثأر لنفسه والابقاء على مودة محبوبته ، ولكن مصطفى - يا للاسف - لا يريد دخول معارك من أجل البنات ، ولا يرغب فى القتال خارج قريته !! ويتألم حامد كثيرا حين يقول له مصطفى : الميه ما تطلعش العالى يا حامد .. يعنى ضرورى تحب بنت شيخ الخفر !! شوف ناس على قدك .. وأحسن من ده وده .. تكون من بنات بلدك .. ناس يعرفوك وتعرفهم .. وتبعد عن وجع الدماغ !!

ولكن الحب .. آه منه .. لقد صارت زينب هى كل شىء يفكر فيه حامد ، أو هو يفكر فى أشياء كثيرة ، لكنها تعود - فى البداية أو النهاية - الى الارتباط بزينب !! اذا كان الماء لا يصعد الى أعلى فليس قلبه ماء !! انه عصب ودم .. دم حار فوار يجيش لهـا ويجذبه اليها .. سامحك الله يا مصطفى .. ولكن ما العمل ؟

ويصارح حامد أمه فلا يعجب فطومة تمرد صغيرها المبكر فتزجره .. وحينئذ يفكر - لاول مرة - فى الانقطاع عن المدرسة والاعتماد على نفسه . وهكذا صار مكانه كل صباح فى حقل .. أى حقل يدفع للعـامل أجرا .. وتعلم قيادة جرار الحراثة .. و صلاحه . وقبل أن يركب الجرار كسائق محترف تسلل الى سمعه نبأ زفاف زينب !! الى من ؟ الى مصطفى !! « آه النذل .. استنجدت به فعرفها وسرقها .. آه .. انه الفدان ونصف .. قطعة أرض حقيرة .. جعلت مياه مصطفى تطلع العالى ، بينما ينهمر الطين على رأسى أنا .. نعيش نتعلم » .

وبرغم تأكد حامد من نبأ الزواج فقد وجد لذة فى انتظار رؤيتهما جنبا الى جنب ليلة الحنة . أراد أن يرى أركان الخيانة مجتمعة ؟ او اراد أن يرى المجنى عليها ــ كما تخيلها ــ تحبه هو ولا تحب عريسها ؟ أو أراد أن يرى وجه الصـــداقة وهو يتحول الى خيانة كريهة مرائية الى آخر لحظة ؟ .. ربما بقى لكل هذه الاسباب .. هو لا يدرى بالضبط ولكن الذى يدريه أنه تعذب كثيرا . وعرف معنى الكراهية ، كما عرف لوعة الوحدة فى التعلق بالامل .. وفى ليلة الحنة وقف حامد بعيدا .. يرقب الماشطة وهى تنقش أيديهما .. ثم ترسم عروسين بالحناء على الحائط خلفهما .. وتوقد صينية الشموع .. وينطلق الغناء .. وعندئذ فقط تأكد لحامد ما كان متأكدا منه من قبل .. انهما صارا زوجين .. وانه ــ هو فقط دون كل الناس ــ الغريب على الموقف وعلى القرية !! وهنا يملأ عينيه بنظرة طويلة منها .. من زينب .. ثم ينصرف .. عن القرية .. مستترا بالظلام .

وتصبح خالتى فطومة فلا تجد ولدها ، فيتسرب الشك الى قلبها، فتبحث هنا وهناك .. ولا خبر !! وشائعات القرية ترسم له أكثر من مصير مؤكد .. فقيل انه أغرق نفســه فى الرياح .. وقيل القى بها تحت القطار .. وقيل انه شوهد فى سوق الماشية على حافة المدينة بثياب مستعارة يعمل فى السمسرة .. والنشل اذا استطاع !! وتبكى خالتى فطومة وتطلق عويلهــا وصواتها .. ولكنها تسلو مع الايام .. وتعود لتنادى على فجلها وجرجيرها ، وان إكتسبت نبرات النداء عمقا حزينا يذكر بالثكل الاليم .

وذات مساء معتم ، وكان قد مضى أكثر من عام على تلك الليلة التى شهدت اختفاءه فتح حامد الباب دون صوت ، وهجم على أمه فاحتضنها بذراع ، ويده الاخرى تغلق فمها حتى لا تصيح !! وبعد أن لمت أشتات نفسها المبعثرة وتأكدت من وجود ابنها الى جانبها أبهى مما كان أخذت فى بكاء صامت حزين وهو يحكى لها ماكابد ولاقى .. وكيف تحول الحال .. ولم تكف الا حين نبهها الى اقتراب

الفجر ، وأنه صمم على الرحيل قبل أن يراه أحد ، فما يحب أن يعود موضوعا لحديث . وتلبس فطومة ثوبا أحضره لها ابنها ، وتدع كل شيء في الدار على حاله ، وتغلقها ، وترحل معه .. مستترين بالظلام .

وتصبح الحارة فلا ترى فطومة تسعى الى الترعة بجرتها ، ويتوسط النهار فلا يرتفع صوتها في ساحات القرية وحاراتها مناديا على الفجل الاخضر .. ومرة أخرى تنطلق الحكايات .. أشـــهرها وأكثرها استمرارا أن عفريت ابنها زارها وخدعها وأغرقها في الرياح .. وتكثر الحكايات وتتفرع حتى تضل بينها حكاية فطومة نفسها .

وظل حامد في غربته أربع سنوات أخرى يشده أمل واحد ، أن يعود الى قريته يوما في هيئته الجديدة وأسرته .. فيكون مفاجأة مذهلة .. للقرية .. ولزينب .. آه .. زينب .. ولمصطفى !! وقد كان .

وقال مصطفى وهو يقضم حبة من حبـــات التين ، ويناول ابنه منصور – الواقف بالباب – تينة أخرى :

– والله زمان .. انت يا أخي مش لك أهل تسأل عنهم ؟

كان قلب حامد خاليـــا صافيا لا يكدره شيء .. ولا يحمل حقدا لانسان .. بل كانت تستولى عليه نزعة صوفية شديدة الاحســـاس بالله منذ حقق أمله وشاهد سلطانه في الخلق والتغيير .. منذ أعوام ومصطفى كما تركه .. لم يزد غير شعرات بيضاء خالطت ســواد رأسه على غير ميعاد بل لعل احساسا حزينا مقبضا قد سيطر عليه حينا عندما رأى زينب وقد جف عودها وذوى الورد الذى كان يطل من خديها وخبا النور الساحر الذى كان يرسله وميض عينيها !!

– مشاغل يا مصطفى ياخويا .. أكل العيش عاوز كده .

قال مصطفى وأصابعه تبحث عن تينة جيدة في الطبق :

– لكن .. برضه .. مهما كان .. على كل حال نورت البلد وجيرة الجيزة كمان (كان قد عثر على التينة الصالحة وقذف بها في فمه) والحمد لله عشنا وشفناك .. هه .. لكن .. متأخذنيش في

السؤال ده ٠٠ خدني على قد عقلي ٠٠ أنت عملت ايه في السنين الطويلة دي ٠٠ ورحت فين ؟ أنا ما أكرهش لك الخير ٠٠ لكن يعني ٠٠ عملت ايه ٠٠ ورحت فين ؟ كل واحد من أهل البلد زمانه في عقل باله عمال بيسأل السؤالات دي !!

– واحنا مالنا ومال الناس يا مصطفى ٠٠ كل واحد يخليه في حاله ويخلي الناس في حالها ٠

وفي الواقع كان حامد مسرورا لكونه موضع اهتمام القرية كلها ومثار تساؤلاتها ودهشتها ٠٠ أليس هذا ما تمناه يوما بالضبط ؟ ما أسهل تحقيق الاحلام ٠٠ وما أجمله ؟!

وتمهل قليلا ليرى آثار كلامه على وجه مصطفى ، ولكن مصطفى كان مسحورا بكل ما يرى ويسمع من حامد ٠٠ يتخيله غريبا طريفا لم يسبق لاحد أن شاهد مثله ٠٠ حتى طبق التين الذي يلتهم حباته واحدة اثر أخرى في ثنايا الحديث ٠٠ حتى صديقه نفسه ٠٠ تخيله شخصية أسطورية أتت من الغيب لتعلن معجزة ٠٠ ولم يكن ٠٠ ولن يكون لها وجود !!

وأخيرا قال حامد :

– وعلى كل حال ياسيدي المسالة بسيطة جدا ، وما فيهاش أسرار، والصبح نشوفك واحكي لك ما حصل . أحسن الوقت تأخر والجماعة تعبانين من السفر وناهد عاوزة تنام ٠

وهنأ حامد نفسه – في سره – على صبره وعدم تسرعه بالافضاء بكل شيء ٠٠ انه بذلك يسيطر على أفكار القرية كلها أطول مدة ممكنة ٠٠ وما يتبع ذلك من اعتباره مكمن سر خطير ٠

وطلعت شمس اليوم التـــالي ، ولم يذهب مصطفى الى حقله كالمعتاد ٠ انه في انتظار السر ٠ سيسمع حديث حامد بلهجته الجديدة الناعمة وهو يحكي له وحده كيف تحول الى هذا الشيء الانيق المعطر الذي يملك زوجة جميلة لا تخور أو تجعر في حديثها ، وطفلة في رقة فراشات البرسيم ٠ ولكن الذي لا يصدقه خيال مصطفى هو كيف أمكن تحويل فطومة بياعة الفجل الى سيدة يجد أمثاله أنفسهم

مضطرين الى تسميتها الست فطومة او خالتى أم حامد على أقل تقدير ؟!

كل هذه الامور شغلت مصطفى جزءا طويلا من ليله ، وكانت زينب الى جانبه تحس تململه وقلقله ، ولكنها لم تطرق هذا الموضوع معه .. وما كان هو بأحمق الى درجة أن يحادثها فى شأن فتى أحبها يوما . وعندما فتح مصطفى عينيه فى الصباح ظن أن كل ما حدث بالامس لم يكن الا حلما . وكان أول ما فعله أن تطلع الى دار فطومة فوجدها على حالها المعهودة .. مقفلة الباب والنوافذ .. فازدرد ريقه فى ارتياح وعجب .. ولكنه ما لبث أن رأى علب الحلوى الفارغة وأوراق الشيكولاتة مبعثرة أمام الباب .. فأدرك ما تردى فيه من وهم ، وأن الامر لا يعدو أن حامدا أصبح مثل كل الافندية المعتبرين .. لا يصحو مع الشمس ليذهب توا الى الحقل !! « وحتى لو ظل نائما للغد .. سأنتظر لاسمع السر » .

وأخيرا .. اجتمع الصديقان فى مدخل الدار . وقد اكتسبت لونا جديدا بوجود شخصيات جذابة فيها .. حقيقة ان الدار تستمد الكثير من قيمتها من أصحابها أنفسهم . فمن أمس ومصطفى وسائر سكان الحارة يتهيبون دار فطومة ويطرقون بابها مستأذنين .. ومن قبل ما كان أحدهم يعبأ بأن يركل الباب بقدمه سواء كانت الدار خالية أو كانت فطومة فى داخلها .

وانطلق حامد فى حديثه معتذرا عن تأخره فى النوم واصفا مشاق السفر وخاصة لمن كان معه « حريم » . وكان مصطفى غائبا عما يسمع ، كان يريد أن يسمع شيئا واحدا :

ـ السر .. السر يا أخى !!

وقال حامد متجاهلا :

ـ السر !! سر ايه ؟

ـ عملت ايه .. ايه اللى عملك كده ؟

ـ وده سر (ومصمص شفتيه) ولا سر ولا يحزنون .. الحكاية فى كلمة ونص اننى لما سبت البلد (هنا غض مصطفى طرفه

وازدرد ريقه) ٠٠ فضلت ماشي أدور على شغل لغاية ما وصلت كفر الدوار ٠٠ كفر الدوار بقى يا سيدى فى آخر الدنيا ٠٠ أبعد من اسكندرية ٠٠ اتعرفت براجل طيب زى حالاتك كده ٠٠ طلع أوسطى فى مصانع النسيج ٠٠ خدنى ٠٠ وعلمنى ٠٠ وبقيت أوسطى زيه ٠٠ جوزنى بنته ٠٠ وبعدها جيت أخدت أمى ٠٠ واحنا دلوقت فى أجازة ٠٠ قلنا نقضى يومين معاكم يعنى ٠٠ ونرجع ٠

وهنا انطلقت صرخة أمام الدار عرف فيها مصطفى صوت ابنه منصور . فصاح وهو فى مكانه يضغط حبة من حبـــات الفول السودانى :

ـ ايه ياواد ٠٠ مالك ٠

وقذف بحبة الفول فى فمه ويده تبحث عن أخرى وهو يستطرد :

ـ يومين وترجع تانى ؟ حقه ده كلام ؟ ولا سنة الواحد يشبع منك ٠

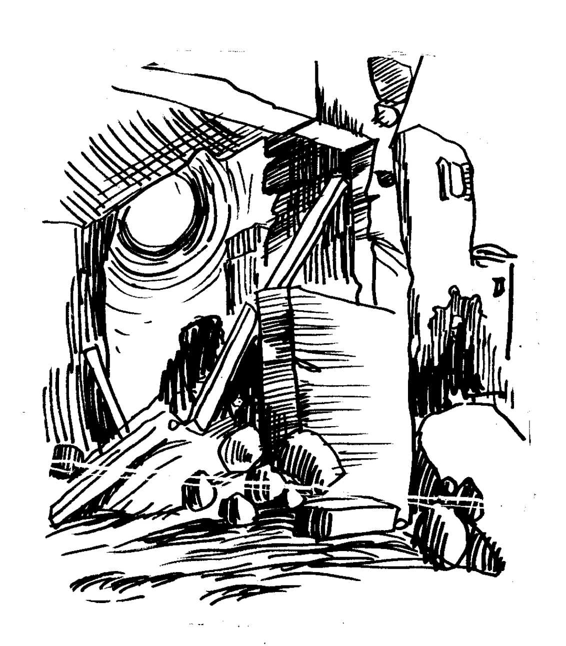
ـ أكل العيش يا مصطفى ياخويا ٠٠ ورديات ليل نهار ٠٠ مصانع ٠٠ دنيا مهولة ٠٠ ناس بتجرى على رزقها ٠٠ احنا ايش نكون؟! كانت عدة أصوات قد ارتفعت أثر صراخ منصور ، فلم يكن بد من أن يقطع مصطفى حديثه ليخرج فيرى ما حدث ٠ وما أن أطل من الباب حتى بادرته امرأته زينب فى صياح مزعج :

ـ قلت لك سيبه يروح المدرسة على الاقل كان زمان دماغنا مرتاح من بلاوى عيال الحارة ٠٠

ـ بس صلى ع النبى وقولى ايه اللى حصل ٠

فقالت ساخرة : اللى حصل وصل ٠٠ ابن حسنين خطف طاقيته وقعد يملاها تراب راح يجيبها منه قام راميها فى وشه ٠٠ واحنا طبعا مش قد أمه اللى عليها لسان طول دراع ٠

وهنا تذكرت زينب شيئا أعاد اليها زمام أعصابها وجعلها تكف عن جر العراك ، حامد فى البيت الذى أمامها ٠٠ انه يسمع صوتها ٠٠ وانه لا يليق بها أن تتحدث بهذه اللهجة أمامه ٠ ولعل نفس



الاعتبار هو الذى أسكت مصطفى فلم يشتم أو يلعن ، واعتدلت لهجة زينب فاتجهت الى زوجها بالحديث وقد نفضت عن نفسها رغبة الدخول فى معركة :

ـ قلت لك يروح المدرسة يتعلم له كلمتين ٠٠ قلت يقعد يشتغل معايا ويتعلم صنعتى !! كان زمانا ع الاقل مرتاحين من وجع الدماغ ٠

قال مصطفى مصطنعا الحكمة والتريث :

ـ فين الولد ؟

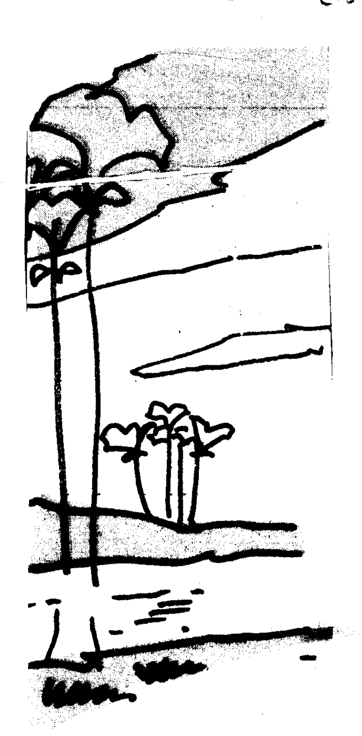
ـ أهو عندك ٠٠ عمال يعيط ٠

كان منصور واقفا وعلى وجهه آثار تراب علق به حين ألقاه ابن حسنين على الارض ، وكانت طاقيته ماتزال فى يده والتراب ينثال منها ، وكان كل مافى وجهه يسيل ٠٠ عيناه وفمه وأنفه ٠٠ وكانت

الصغيرة ناهد قد شاهدت الاعتـداء عليه من بعيد فتملكها اشـفاق شديد . وما كاد ينهض ويأخذ في البكاء حتى اتجهت اليه ناهد وهي ترمقه بعطف وتحاول اسكاته بقطعة من الحلوى في يدها .

وقف مصطفى يرقب محاولات الصـــغيرة لاسكات ابنه ، ونقل عينيه بينهما .. فاهتز قلبه اهتزازة رقيقة ، ومسح بيده على وجه ولده في حنان غير مألوف ، وقال كأنما يحادث نفسه :

ـ من بكرة تروح المدرسة يا منصور .. لازم تروح .



سطوحى

ـ حبر ايه ياولاد .. بتجروا ليه .. مالكو ؟
وتمهل أحدهم وقال وهو يشــير بيديه فى حدة مفتعلة :
ـ مالنا ايه ! العزبة خربت وأنت نايم !!
فابتسم سالم فى بلادة حتى لمست ذؤابتا شاربه الطويل أذنيه . وقال فى كسل :
ـ صحيح ايه الخبر ؟
قال الآخر فى ضيق :
ـ اما أمرك عجب يا سالم ! بقى سطوحى بيضرب مراته ، وبيقولو بلغت الموت ، واحنا نيجى على صواتها من الغيط وأنت قاعد فى الجرن تمزمز فى الشاى ولا سائل، والآخر بتسال جرى ايه !؟ شوف يا أخى رجالة آخر زمن !!

ولعن سالم فى سره الذين يعكرون صفو الامن ، وبالتالى يعكرون عليه جلساته الهادئة الى براد الشاى وعلبة المعسل . عليه الآن أن ينهض ليشترك فى فض النزاع ثم يعقد جلســـة تحقيق تنتهى بالصلح !! وجع دماغ لا آخر له . تعود بعده المرأة الى زوجها ليستأنفا

الشجار من جديد ، كأنه ليس فى العزبة كلها رجل يضرب امرأته غير سطوحى والمخفية بتاعته !!

ونهض سالم فى تراخ من فوق كومة القش التى يفترشها أمام عشه الطينى ، الذى استند بظهره الى منزل الناظر – من الخلف – واستقبل بواجهته مشرق الشمس ٠ وسكب ماء الجوزة الاصفر ذا الرائحة النتنة على بقايا النار أمامه ، وسحب البندقية الصدئة من القش ، وجذب من فم الماسورة خرقة كان قد حشرها فيها لتحميها من التراب ، ونفض الشبشب ، الذى كان حذاء وأزيل نصف جلده الخلفى ، ووضعه فى قدميه المليئتين بالشقوق ، وسار صوب مدخل العزبة ليفض الشجار ٠

مضى الى هدفه خطوات ، ولكن صرير نافذة حجرة الناظر أوقفه مكانه كالتمثال ٠ ان النافذة لا تصر الا اذا فتحت ، واذا فتحت أطل منها الناظر ٠ واذا أطل من نافذة حجرته أصدر أمرا ٠٠٠ عليه أن ينتظر الامر ٠

وفتحت النافذة ، وظهر الناظر خلفها بثياب النوم متكئا على حافتها ، وقال فى ضيق وهو يتثاءب :

– ايه يا سالم الهيصة دى اللى قلقت نومنا ؟

وتقدم سالم خطوات حتى اقترب من النافذة ، ورفع يده فى عجلة وخفضها وهو ينهى الى الناظر خلاصة ما سمعه عن شجار سطوحى وعزيزة ٠

قال الناظر ، وهو يحاول السيطرة على عينيه الجائعتين الى النوم :

– روح هات سطوحى ومراته ٠٠ جاتهم القرف ع الصبح ٠٠

وبصق الناظر متأففا ثم استدار ليرتدى ثيابه ٠٠ وانصرف سالم ليحضر المتشاجرين ٠٠ وبعد قليل كان سطوحى وعزيزة وسالم ومن كان حاضرا الموقعة يقفون أمام الناظر ٠ وكان صدر سطوحى يعلو ويهبط من الانهاك ، وكان واضحا على عزيزة أنها ضربت كثيرا ٠٠ وجهها أحمر جدا ، وشعرها منفوش وثوبها ممزق من على الصدر ، وقدماها متربتان وفيهما خدوش ، ولكن عزيزة – مع كل ذلك –



كانت جميلة .. وجهها الخائف ونظرتها الكسيرة الحزينه وثوبها الممزق فوق الصدر يظهر جزءا من جسدها فتعيد الجزء الممزق الى أصل وضعه وتضغط عليه بيدها .. كان يزيدها جمالا .

ونقل الناظر عينيه بين عزيزة الجميلة وسطوحى الذى يشبه الفار المذعور :

ـ ضربت عزيزة ليه يا سطوحى ؟

قالها الناظر وعيناه مثبتتان على وجه عزيزة الحزين .

واندفع سطوحى يتكلم :

ـ امبارح كسرت بلاص .. أدى سبب ضربها امبارح .

قال الناظر فى لهجة قاطعة متضايقا من استطراده :

ـ النهاردة !!

ـ والنهاردة لسة قايمين من النوم بنقول يا فتاح يا عليم ، ودى بتقول : عاوزة بلاص !! قلت لها يابنت الحلال اشحتى بلاص يومين تلاتة على ما نقبض الجنيهين ، تعرف يا حضرة الناظر كان ردها ايه : أنا ما أبقاش مراة راجل ينفلق اتنين وأشحت .''

واستقرت عينا الناظر على سطوحى وراح يحـــاول كتم ضحكة مرحة ـ لا تناسب الموقف ـ حتى اهتز جسده كله ، لسبب بسيط ، هو أن سطوحى المسكين ، لضعفه ، لا يكاد يكمل رجلا ، فضلا عن أن ينفلق اثنين .. قمىء ، ضعيف ، هزيل ، تعد أضلاعه بالواحد ، نصف وجهه الشاحب شارب ملفوف ، ونصف جسمه كرش يملأه طحال متضخم .

والتفت الناظر الى عزيزة قائلا :

ـ ليه يا عزيزة ؟ كنت هاودى وبلاش بهدلة ووجع دماغ .

ـ والله أنا ماكنتش باشحت فى دار أبويا عشان أشحت عنده اذا ماكنش قادر يعيشنى ... يطلقنى ..

وفى غمرة الانفعال نسيت عزيزة نفسها ولوحت بيديها ، فتهدل الجزء الممزق على الصدر ، وانفرج عن ثدى متكور أبيض بض ، كأنه كرة من قشدة رجراجة .

واحتد سطوحى لتعييره بالفقر أمام الناس . وفى ثورة غضبه أمضى حكمه :

ـ أنت بتعايرينى ، وجاية كمان بتفضحينى ؟ تب على الطلاق ما أنت بايتة فيها الليلة دى ..

وهنا انهارت عزيزة فتهاوت على الارض تبكى وتنتحب فى صمت ، وتحاول ان ترفع صوتها فتعول وتصرخ ولكن وقوف الناظر كان بكبح جماحها ، ثم أخذت تندب بختها الاسود الذى قذف بها فى عزبة بعيدة لا نصير لها فيها ، والقى بها عند رجل بجعلها فرجة دون الناس .

وسكت الجميع لحظة قصيرة ، ثم انطلقوا ـ كلهم فى وقت واحد ـ يلعنون ويشتمون الرجل الذى يهين بنات الناس .

ولما كان أهل عزيزة فى البرارى .. بعيدا جدا .. فقد اقترح الباشخولى ـ حلا للاشكال ـ أن تقضى عزيزة الليلة المحلوف عليها فى بيت حضرة الناظر مع الست الهانم والستات الصغار . وبطبيعة الحال لم يستطع سطوحى أن يعارض .

وذهب سطوحى الى الدوار وقضى يومه كما يقضى كل الايام .. فى علف البهائم وسقيها وتنظيفها ، ولكنه كان فى هذا اليوم معجبا بنفسه ، فقد استطاع أن يتحدى كل الواقفين .. حتى الناظر .. وانطلق اليمين من فمه كالقذيفة رغم وقوف الناظر ، ولعله أراد أن يندم على تسرعه وأنه كان يجدر به ألا يعلم أحد بأسباب الخلاف بينه وبين امراته ، ولكنه كان يدافع عن نفسه ـ أمام نفسه ـ بأن هذا اجراء أملاه الموقف ، وهو سليم جدا ، فقد أثبت أنه أن كان للناظر سلطان فى عمله فان سلطانه يقف عند عتبة الدار ولايتعداها الى شئونه الخاصة .. فهو حر .. وقد أثبت ذلك .. وحلف اليمين .. أمام الناظر ..

وعندما شمل العزبة ظلام الليل واغلق سطوحى الدوار على البهائم وعاد الى داره ووجدها مظلمة ساكنة تذكر ـ وكأنما كان ناسيا ـ أن امراته ستقضى الليل فى بيت الناظر !!

وأحس بهم ثقيل يجثم على صدره حتى كاد يكتم أنفاسه ، وتخيل أن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تحدث حتى الصباح فى بيت الناظر!! ومسح شاربه ، وهز رأسه فى عنف وهو يحاول أن ينفى هـــذه الافكار الرديئة عن ذهنه ، ويحاول أيضا أن يذكر نفسه أن امرأة الناظر موجودة فى البيت وهى أكثر جمالا ‧‧ ونظيفة ‧‧ وصوتها ناغم ‧‧ ومعطرة ‧‧ وبتحط أحمر ‧‧ وشعرها زى سلوك الذهب ‧‧ وبتلبس ‧‧ روب ‧‧ وبنت ناس ‧‧ !!

ولكنه عاد فتذكر أن هناك أناسا مولعين باشتهاء ما فى أيدى الآخرين ، حتى ولو كان الذى معهم خيرا منه ألف مرة ‧‧ وذكر أنه كان يستيقظ مع الفجر ليهز توتة الحاج شلبى ويأكل ثمرها قبل أن تصحو العزبة ، وياقادر ياعظيم كان يتحول فى فمه الى عسل أبيض ‧‧ بينما هو يترك ثمر توته تأكله الارض ‧ واقشعر بدنه وهو يذكر أنه كان لايمر على مقاتة الا ويأخذ منها خيارة ويأكلها فى نهم وتلذذ مع أن جسر الترعة أمام داره كله خيار ، وتذكر أيضا أن الناظر حدق ، ويستطيع ان يستغفل بلدا بأكمله وليس امرأته وأولاده فحسب ‧ ومرة أخرى مسح على شاربه فى ضيق شديد وهو يحس بأيد قوية تقبض على عنقه وتوشك أن تخنقه ، وبألسنة صغيرة من اللهب ــ لا عدد لها ــ تخرج من جسمه ــ كأنه أهاج خلية نحل فغرست ألف نحلة ابرها فى جلده ، فأغلق الدار وخرج الى الطريق ‧

وأحس بحاجة شديدة الى رؤية امرأته والاطمئنان على وضعها فى منزل الناظر وتمنى لو يبعث اليه من يناديه ــ كما يفعل فى أكثر الامسيات ــ ليرسله الى القرية المجاورة ليشترى سكرا وشايا أو كازوزة أو ليحضر بطارية الراديو ، لعله يستطيع أن يراها فيوصيها ويحذرها ولكن الناظر لم يرسل اليه ، وكأن بيته فى هذه الليلة لا يحتاج الى أى شىء ‧‧ أى شىء غير الصمت ‧

وقصد الى سالم فى عشة بجوار بيت الناظر ، وجلس معه ساعة ‧‧ ساعتين ‧‧ لعله يسمع اى حركة ، تطمئنه او حتى تؤيد شكوكه

.. لكن البيت كان مستغرقا فى صمت عجيب ليس فيه من صوت سوى موسيقى تنساب هادئة من الراديو . ليس فيه من ضوء سوى لمبة عشرة يعرف أنها فى الصالة تحت التوالة !! وأخذ يكركر فى الجوزة مع سالم وبعض العابرين من خفراء الزراعة . وقد خيل اليه أنهم يسخرون منه وأن نظراتهم تتهكم به وكأنها تقول : آه يا مغفل ياعرة الرجالة . فيه حد والنبى فى الدنيا يسيب مرأته فى بيت راجل تانى طول الليل ؟ ياخيبتك ..

وقضى ليلة مسهدة مؤرقة انتقل فيها بحصيره الذى يفترشه من القاعة الى الدهليز غير المسقوف الى السـطح ، لعله ينام ، ولكن التخيلات الاليمة والاحلام المزعجة كانت تطارده أينما ذهب .

وقام مع الفجـر فدار حول بيت الناظر دورتين وهو يتحسس الطريق بيديه ويتحسس الصمت بأذنيه . لكنه لا يجد ما يشفى أو يقتل !!

وذهب الى الدوار وفكره مشغول وحقده على الناظر مشتعل حتى تمنى أن يسمع نبأ موته الآن بأى وسيلة !! وعلف البهائم وكنس مخلفاتها . وذهب الى الترعة فغسل يديه ورجليه ثم اتجه الى الجرن . وكانت الشمس قد أشرقت – فوجد الناظر واقفا فى وسطه بملابس المرور . البنطلون الكاكى والقميص الرصـاصى ، والقبعة القش والخيزرانة .. وشنطة الدفاتر .. وكان معه الباشخولى وشيخ خفراء الزراعة .. وتطلع سطوحى الى الناظر فى حقد جعله يحس بالضآلة ، وقال فى نفسه : آه .. صاحى من بدرى على غير عادته .. طبعا .. قضى الليل سهران .. والله وقع المحظور .. أنا الى غلطان أنا مغفل .. أنا أستحق ضرب ال ... وقطع سيل شتائمه لنفسه نداء الناظر :

– روح يا سطوحى علق نعمة فى الكارتة عشان عاوز أشوف الساقية الجديدة قبل الفرق ما تنزل القطن .

وتثاقل قليلا .. واختلس نظرة مغيظة الى الناظر .. ثم تنهد .. ومضى .

دخل الدوار . واندفع من فوه الى نعمة فدفع اللجام فى فمها بعنف . فالتقمته واخذت تلوكه وهى ترمق سطوحى باستنكار . ثم جلس خلفها ليفك قيدها ، ولكنها نشت بذيلها فجأة فلسعته فى جبهته .

اغتاظ سطوحى وغلى حقده فقام من جلسته وهو يدلك مكان اللسعة ، وقال بصوت مسموع : يعنى أنت وصاحبك علية !؟ الله يخرب بيتك لبيته !! ورفع سوطه وهوى به على مؤخرتها فصهلت الفرس من الالم ، ورفعت خلفيتها ووجهتها الى صدر سطوحى بعنف، فطرحته بعيدا .. على الارض ..

خرج سطوحى من الدوار وهو يزوم من الالم ويدلك موضع الضربة الذى بدأ يتورم . وقابله سالم وفى يده مفاتيح المكتب ، فسأله وهو يحاول أن يخفى اهتمامه :

ـ ايه يا خويا اللى صحى الناظر بدرى كده النهارة ؟

فرد سالم وهو لا يلتفت اليه . ويواصل خطاه الواسعة :

ـ الناظر كان بايت عند قرايبه فى البندر وجه فى قطر الصبح بدري ..



مسألة ضمير



أحمد وسامى صديقان منذ أيام التلمذة الباكرة ، وفريق « النمر المفترس » للعب الكرة — الشراب طبعا — فى حوارى المنصورة ، ولكنهما الآن أصبحا لا يلتقيان الا فى الاجازات ، فأحمد يعمل فى القاهرة ، أو بالاحرى يسكن القاهرة ويعمل بحسابات شركة الحديد والصلب فى ضاحية حلوان . وسامى يعمل بأحد بيوت التصدير والاستيراد باسكندرية . ولا سبيل الى تلاقى الصديقين القديمين الا على سبيل المصادفة — التى قد تفرضها ظروف ما — أو حين يعودان فى الصيف الى مدينتهما — المنصورة — ليقضيا الاجازة السنوية .

وكانت تلك الليلة هى آخر ليالى أحمد فى المنصورة ، فأجازته تنتهى غدا ، وعليه أن يتسلم عمله بعد غد . وقضى الصديقان ليلتهما على شاطىء النيل الاسمر المتدفق فى غير انقطاع — حول الحسان من رواد كازينو منيرفا . وحانت لحظة الفراق فوجبت المصافحة وكلمات الوداع ، وأزاح أحمد كرسيه لينهض ، فدار اليه

سامي معانقا ، وهو يردد امنيته التقليدية التي ينهي بها حديثه كلما التقيا بعد انقطاع :

ـ ارجو أن نلتقي في الاجازة القادمة ومعك امرأة وطفل !!

كان أحمد يلقي الى صديقه بنصف اهتمامه ، اذ كان مشغولا بحساب ما تحتاجه رحلة الغد من لوازم ونفقات ، فقال معقبا ، وأنه لا يعني ما يقوله :

ـ أتزوج ؟!

قال سامي ضاحكا وهو ينفث ذيلا متقطعا من الدخان :

ـ لا ٠٠ تستأجرهما للتمويه !!

ـ ياه ٠٠ أنت متفائل جدا ٠٠ بمثل هذه السهولة ٠٠ في عام واحد ٠٠ زوجة وطفل !! فارس ٠٠ فارس بدون شك ٠

فقال الآخر جادا وكأنه يعرض بعض مشكلته الخاصة :

ـ والله يا أحمد ٠٠ ماذا أقول ؟ المسألة لا تحتاج الى فروسية ٠٠ ظروف ٠٠ ظروف لا أكثر ٠٠ هذا الحبل الذي تمتد بامتداده الحياة ٠٠ اعني الزواج ٠٠ أحيانا يجدل في بساطة متناهية ويتم في هدوء ، وأحيانا تتشابك الخيوط وتتعقد فلا يتم الامر الا بعد جهد وعناء ٠٠ وقد لايتم ٠٠

فطن أحمد الى ما يعاني صديقه فقال مهونا دون أن يعني الدخول في جوهر الموضوع :

ـ يا شيخ ٠٠ فال الله ولا فالك ٠

فاستمر الآخر وكأنه لم يتوقف :

ـ لقد وقعت في يد جماعة اسكندرانية اوصلتني اليهم ظروف العمل فخطبت ابنتهم ٠٠ انهم الآن يتسلون بعذابي ٠٠ ربنا يحميك من امثالهم ٠٠ يذلونني اذلال دولة القت السلاح أمام سطوة غريمتها ٠

فاستمر أحمد في تهوينه متضاحكا :

ـ اذن لا حاجة بنا الى خوض هذه الحرب غير المضمونة ٠٠ وكفى الله ٠٠

فقال سامي :

– أبدا ٠٠ المسألة محسوبة ٠٠ الزواج أو ٠٠ ولا ثالث لهما ٠٠ انهم يقولون ان القاهرة مملوءة بذلك ٠

– وحياتك ياسى سامى لا بذلك ولا بهذا ، ثم انهم يقولون عن اسكندرية نفس الشيء ، فهل هي دعاية تطلقها كل مدينة للتشنيع على غيرها ؟! ثم كيف تظن بى مثـل هـذه الامور وأنت تعرف تاريخى ؟!

– ولكننى لا أعرف جغرافيتك وتضاريسك ٠٠ وسبحان من يغير ولا يتغير ٠٠

– الا الضمير ٠٠ وأنا ضميرى من الماس ٠٠

– وأين الانسان الذى يعيش بلا ضمير ؟ كل انسان يولد بضميره كما يولد بانفه أو عينه ، ولكن بعضنا نجح فى تخديره ٠٠ أو خنقه أحيانا ، تحت شعارات مختلفة ، الظروف ، الوضع الاجتماعى ، حق الشباب فى المرح !! أشياء كهذه نقولها لضميرنا عند اللزوم فنكتفى شر العراك معه ٠ ان الضمير كحارس الارض الفضاء ، فى الواقع لا يؤدى أية مهمة ، الا انه يذود الناس عنها ليثبت سلطانه عليها ٠

– ولكن الارض فضاء بالنسبة لك فحسب ٠٠ أعنى ٠٠ بالنسبة للرجل ، لان الاضرار لا تقع عليه فى صورة مادية منبوذة ٠٠ أما الفتيات ٠٠ الامر يختلف ٠٠ تماما !!

– اذن لنحمد الله أننـا نجونا من ضربة قدر لا يرحم ٠٠ فخلقنا رجالا ٠٠

قال أحمد جادا وقد استأثرت به الفكرة :

– هذا تفريق يقوم على الانانية ٠٠

قال الآخر مندهشا :

– أتريد أن ترخى العنان للفتيات ؟

– على العكس ٠٠ اننى أنكر على نفسى ما أنكره على أختى ٠٠ حتى لو كانت الارض فضاء ٠٠ يجب أن تظل بكرا ، يحميها حارسها الى أن يسلمها الى صاحبها الشرعى ، والا تحولت الى ٠٠٠ ما تعرف ٠

حملق سامى فى السماء ، وعد سبعة نجوم ، ثم نظر الى صاحبه

قائلا فى لهجة جدية مصطنعة :

ـ هل انضممت الى جماعة صوفية ؟

ـ لا ٠٠

ـ هل تلعب اليوجا ؟

ـ أبدا ٠٠

ـ هل تأكل بعض الحلبة على الريق ؟

ـ احيانا ٠٠

ـ داوم على ذلك وسترى أن المغص سيزول باذن واحد أحد ٠٠

وتعانقا ، وافترقا بعد أن تواصيا بكتابة الرسائل ٠٠ وهذا دأبهما عقب كل لقاء ، يبـدأ بالعتاب على إهمال المراسلة ، والاعذار معروفة ومكررة ٠٠ وان كانت فى النهاية صادقة ٠

وما كاد احمد يأخذ مكانه فى احدى عربات الدرجة الثالثة ويضع حقيبته على الرف أمامه حتى رأى صديقه سامى يسير على الرصيف وفى صحبته فتاة عرفها على الفور ، انها نبيلة أخته ٠٠ كم صارت جميلة ناضجة ٠ تلك التى كانت تنط الحبل مع صويحباتها منذ سنوات قلائل ؟! وحسب ذهنه بسرعة المدة التى قضاها فى الوظيفة ولم ير فيها نبيلة ، فوجدها اربع سنوات أتبعها بآهة حزينة ٠٠ وقبل أن يستقر على رأى : هل من اللائق أن يناديه أو يتركه ، التقت عيونهما ، فهتف سامى على الفور وهو يمسك بيد التى معه :

ـ بس ٠٠ ضاعت والتقيناها ٠٠ هذا هو الحارس الامين !!

فوقف احمد منحنيا حتى خرجت كتفـه من نافذة العربة ، وقال متصنعا المرح :

ـ ذاك هو الكلب يا صديقى !!

ـ كلب ٠٠ قط ٠٠ أنت أيضا على كثب من عربة السبنسة ٠٠ المهم ٠٠ ([illegible] خطوة ليقدم أخته التى كانت تنظر الى أظافرها وتداعب مفتاح ساعتها الصغيرة) هذه أختى نبيلة ٠٠ وأختك طبعا ٠٠ أنت تعرفها ٠٠ لا تدعها حتى توصلها الى منزل خالتها ٠٠ الدقى ٣٧ شارع الدكتور كامل ٠٠ هى تعرف العنوان ٠

ـ ولماذا لم تحدثنى عن سفرها أمس ؟ أم أن السفر فجاة ؟!
ـ لا والله ٠٠ فقط أردت ألا أقلقك وأغير نظام سيرك ، وهى أيضا قد سافرت من قبل بمفردها وتعرف الطريق ٠٠

تحركت الفتاة لتصعد الى عربة القطار وقد أرسل زفيره وشهيقه استعدادا للانطلاق ٠٠ وأخوها يعتذر بصوت يحاول أن يغطى على ضجيج القطار :

ـ الذنب ذنبك ٠٠ أنت الذى وضعت نفسك فى طريقها ٠٠ مع السلامة ٠٠

كانت نبيلة قد وصلت الى مكانها ، فجلس أحمد ليتيح لها مبادلة أخيها التحية من النافذة ، وحين تحرك القطار أخذت مكانها المقابل له٠

ـ « جميلة » هكذا قرر أحمد فى نفسه ٠٠ « جمال منصورى أصيل » ٠٠

واختلس نظرة أخرى أطول ٠٠ جمال منصـــورى أصيل ٠٠ القسمات واضحة ٠٠ العيون عسلية ٠٠ عميقة صافية ٠٠ الحاجبان متباعدان قليلا مما يعطى الوجه مسحة حلوة باسمة ٠٠ الشـــعر الملتهب المجدول يصل الى الخصر ٠٠ الشفتان رقيقتان حانيتان ٠٠ القوام رشيق ملفوف ٠٠ تبارك الخلاق ٠٠

ووقف القطار فى المحطة التالية ، وصعد رجل الى العربة ، وحملق فى الممر بين المقاعد ثم نقل عينيه بين المقعد الخالى الى جانب نبيلة والمقعد الخالى الى جانب أحمد !! ومن الطبيعى جدا أن يختار الاكثر رفاهية ٠٠ وبسرعة ادرك أحمد الموقف ، فلم يتردد فى الانتقال الى جانبها وترك المقعد الآخر كله خاليا ٠

كانت نبيلة قد جلست الى جوار النافذة والقت بنظرتها الى الحقول الخضر ، وراحت مع أفـكارها ، فلمـا فوجئت بحـركة أحمـد عادت بانتباهها وعينيها الى داخل العربة وأراحت ظهرها على المسند فلامس جنبها ذراع أحمد الذى أحس بطراوة الجسد ، فجذب نفسا عميقا ، وأرسله متقطعا على مهل حتى لا ينهد الحجاب ، وعاد يهمس لنفســه وهو يلحظ خالا صغيرا مختبئا تحت منحنى الاذن: « تبارك الخلاق » ٠

وفي الواقع ان أحمد لا يستطيع أن يقول أو يفعل أكثر من ذلك . فضميره له بالمرصاد . يؤنبه ويؤرقه على أقل هفوة ٠٠ وفي هذه المرة بالذات كشر ضميره عن أنيابه وشرع أسنته ليسيل دمه مع أول حركة ٠٠ انها فتاة ٠٠ وأخت صديقه ٠٠ وأمانة في عنقه ٠٠ ضمير تكعيب!

ووصل القطار المحلة الكبرى ولم يتبادلا كلمة ، وأحس كل منهما على نحو غامض أنه يجب أن يقول شيئا . ولكن كيف ؟ وصعد بائع المثلجات وملأ العربة صياحا . فرأى أحمد من واجبه أن يحييها . وشربا . وتعازما على دفع الثمن . وتحادثا بعدها حتى بلغا القاهرة . وبلغ الحديث مجاهل حياة كل منهما فكشف عن بعض جوانبها ٠٠ فهي مرحة جريئة تأخذ على عاتقها جانب الترفيه عن المدرسات زميلاتها في مدرسة القرية التي تعمل بها ، وهي تدخر نصف مرتبها الشهري ، تحول نصفه الى أساور وخواتم وفساتين ٠٠ وعرف أيضا أن من عادتها أن تقضي بعض اجازتها عند خالتها في القاهرة ، وبعد أسبوعين ستنتهي أجازة سامي ويعود الى اسكندرية . وستلحق به لتتفرج على البلاج . لكنها لن تلبس المايوه ولو شنقوها ٠٠ وعرفت منه — دون أن يحدثها بذلك — أنه خجول ، أعزب قريب من المثالية، يقرأ أحيانا لكتاب مهذبين ويعتنق ما يقرأ ٠٠ اذ أنه يعتقدان الكتاب لا يكذبون أو يتصنعون !! ما الذي يحملهم على الكذب ؟

وعندما صارا في ميدان رمسيس لم يركب الباص . وانما أشار الى تاكسي . وجلس الى جانبها في المقعد الخلفي وهو يهتف بالسائق :

— الدقي يا أسطى .

« خمسة وعشرين قرشا ٠٠ وايه يعني !! لكنها ٠٠ نبيلة ٠٠ الى جانبه ٠٠ الا يساوى ذلك ربع الجنيه ؟ »

وانطلقت السيارة بهما حتى انعطفت في شارع الدكتور كامل فبدا — كأكثر شوارع الدقي — خاليا من الناس موحشا — تتلاقى ذوائب أشجاره المغروسة على الجانبين ونثار زهورها يفرش الارض بالوان بهيجة ٠٠ ثلاثة وثلاثون ٠٠ خمسة وثلاثون ٠٠ سبعة وثلاثون ٠٠ سبعة وثلاثون ٠٠ حاسب يا أوسطى ٠٠ وتوقف الاسطى .

ـ أليس هذا منزل خالتك ؟

قالت وهى تفتح الباب من جانبها :

ـ هو كما تركته منذ عام ..

وتقدمته قفزا على السلم ، ووجد نفسه ـ عفويا ـ يحملق فى ساقيها المتناسقتين ، وخاصة فى تلك المواقع التى يكشفها انحسار الفستان نتيجة لصعود السلم .

وتصور أخته مكانه وتتصرف نفس تصرفه فتعجب بساقى شاب غريب ، فأحس بالاشمئزاز حتى أوشك أن يبصق على السلم ... لم يمنعه الا أن رخام الدرجات نظيف جدا .. ها هو يتصرف مرة أخرى وكأنه فتاة !! أليس هذا ما قاله سامى على الكازينو ؟! انه لا يزال تحت سلطان المعادلة « اياها » بدليل أنه أخذ فى تقريع نفسه ورميها بكل نقيصة ، ولم ينقذها ـ نفسه ـ منه الا وصوله الى الدور الثالث وكانت نبيلة قد سبقته ببضع درجات ، ووقفت تنتظره أمام الباب ، وكانت تنتظرهما معا مفاجأة .. القفل فى الباب!! هكذا بكل بساطة .. الباب مغلق بالقفل ، والقفل لا يستطيع أن يجيب عن أى سؤال .

ووقفت نبيلة مبهوتة وقد شحب وجهها ، أما أحمد فقد أدركه لون من الجمود وكأنه لا يفهم ، ثم ما لبث أن انتفض قلبه وتملكه دوار خفيف جعله يميل معتمدا على درابزين السلم .. تماما كالسيارة التى نفد وقودها فمالت الى جانب الطريق !

وران صمت قصير ..

ـ ما العمل ؟

قالتها نبيلة ببساطة وهى تنظر اليه نظرات تائهة ، فيها الاحساس بالذنب ، وكأنها ـ بالمقابل تترك قيادها له .. انه الرجل ، وعلى الرجل أن يتصرف !! وحاول أحمد أن يتمالك نفسه :

ـ لا شىء .. لعلهم فى الخارج .. فى زيارة او يشترون شيئا .. أو أى أمر من هذا القبيل .. لا داعى للانزعاج .

وقالت وهى تلقى بنظراتها فى بير السلم ولا ترى قرارها :

ـ أنا لست منزعجة .. هل ننتظرهم هنا ؟

ـ طبعا لا (وتلفت حواليه) ‥ حتى الشقة المقابلة مغلقة هى الاخرى ‥ اف ‥ حظ طبعا وقوفنا هنا فى انتظارهم غير معقول ‥ ننزل لعلنا نجد البواب ونستعلم منه متى يعودون ٠

ونزلا ‥ ولم يجدا البواب ‥ ووقفا فى الباب قليلا ‥ واخذ أحمد يتلفت حواليه فى حيرة وكأنه يبحث عن شىء ضـــائع ، وخيوط من العرق تجرى على جانب عنقه ، ويده اللزجة تـركت رسمها على الزجاج النظيف ‥٠ وكان العابرون يرمقونهما بنظرات مستطلعة وجدت الفتاة ضيقا فى مراقبتهما ، فقالت هامسة :

ـ أنا اعرف أنك مكسوف تقولها ‥ ومع ذلك ‥ أنت أخى تماما ‥ ساقولها أنا ‥ أننا لانعرف متى يعودون ‥ ولا نستطيع الاستمرار هكذا ‥ وأنت متعب من الســـفر ‥ وكذلك أنا ‥ سنذهب الى مسكنك ‥ أنت أخى ولا عيب فى ذلك ‥٠ نستريح ساعة ، ثم نعود ٠

واهتز شىء فى داخله ، وتململ ضميره لينهض معترضا ‥ حقا لو كانت أخته فى موضعه !!

ولكن نظرة مريبة رشقه بها فتى عابر جعلته يغضى ويكف عن المناقشة ٠ لقد اقتنع أن هذا حل اضطرارى ‥ وانه الحل الوحيد ٠

وتاكسى مرة اخرى ‥ والى المنيرة يا أوسطى ‥

ومسكن أحمد ـ أن كنت لاتعرفه ـ حجرتان صغيرتان وممـــر ضيق ، ففى احدى الحجرتين سرير قديم من ذوى الاربعـــة ‥٠ الاعمدة ، يعزف لحنا جنائزيا متهدجا عندما تعلوه أو تتقلب فيه أو تهبط منه ‥ لقد علم صاحبه فضيلة النوم فى وضع « انتباه » ، وفى الحجرة الاخرى اربعة كراسى ونضد من الخامات الشعبية ‥٠ من القش ودولاب صغير للثياب أحسن حالا من السرير وهـــذا ما منحه حق النهوض فى حجـــرة الجلوس ، لان حجرة النـــوم سر حربى !!

وكان احمد يتقدمها الى حجرة الجلوس وهو مكسوف من الغبار الذى يكسو كل شىء فيها ، ومن الفوضى الواضحـــة فى بعثرة

محتوياتها ·· واخيرا لقلة اثاثها ·

وكان ضروريا – مادام الامر سيستمر الى ما بعد العصر – أن يبدلا ثيابهما وان يتناولا طعاما ·· وان يتكلما ·· وان يضحكا ·· على المقلب احيانا ·· واحيانا لغير سبب واضح !!

وعند الاصيل استعادا ثياب السفر ، وارادت ان ترحمه من اجر التاكسى فتوقفت عند محطة الاتوبيس ، ووافقها متمنعا . وفى زحمة السيارة – وكانا واقفين – صنع من حولها نطاقا بساعديه ، وشم مفرقها وتأمل منابت شعرها فى الفة وتحبب واضطرت هى للتعلق بساعده مرة ···

وصعدا السلم وهما لا يشكان فى أن هذا موعد معقول لوجود أى اسرة فى بيتها ، ولكن القفل كان مايزال ممسكا بزمام الباب !! واختلط حنقه بارتباك حقيقى غرق فيه حتى اذنيه ، وطاشت تصرفاته حتى انه ضغط على الجرس ضغطا متواصلا ، وهنا فتح الباب ·· المقابل ، واطلت منه سيدة عجوزيوحى وجهها البيضاوى بأنها ثقيلة السمع . وتدل لكنتها على انها أجنبية ·· يونانية او ايطالية ·· وامالت رأسها نحوهما وكأنها ديك يوشك أن يصيح ، وقالت بغير سؤال : انهم يغادرون منزلهم عادة فى مثل الآن ، ربما يتنزهون على النيل أو لعلهم فى طريقهم الى سينما صيفية ·· وعادت العجوز واغلقت بابها دون أن تنتظر جوابا ·

واحس احمد ان أية بادرة تأفف ، أكثر مما صدر منه ، ستكون قاسية على الفتاة ، وتأنيبا لهما على ذنب لم تصنعه ، فقرر التزام الصمت ، بل لعله أصبح أكثر ميلا الى تهوين الامر عليها ·· وملاطفتها ·· وكأنما كانت كلمة العجوز اشارة الى الطريق ، فحين تمتمت نبيلة :

– سينما !! ياه ·· السنما الصيفى تعمل حتى منتصف الليل !!

اعتبر أحمد أن ذلك ايذان بحقه فى « تضييع وقتها » كما يتراءى له حتى وقت عودتهم · واقترح ان يقصدا أقرب سينما صيفية

فلعلهما يجدان اسرة الخالة هناك ٠

وامام باب السينما ـ وكان غبش الغروب يغطى الحى ـ تأكدا من شيئين : أن الاسرة ليست فى السينما وانهما يرغبان فى مشاهدة الرواية المعروضة ، فاذا ماثبت أن الخالة فى سينما أخرى فسيحدث التوافق فى مواعيد الانصراف وينتهى كل شىء ٠ وفى السينما جلسا متلاصقين ٠٠ وكانت الرواية عاطفية ملتهبة ، جعلت أحمد الطيب الوديع كالحمل يتمنى لو كان ممثلا ، أو ضابطاً طياراً كبطل الرواية ، اذن لنال من الدنيا الكثير !! وكانت تمضى به الامانى ابعد من ذلك ، ولكن ضميره كالشيخ الهرم ٠٠ لا يذوق النوم الا لماما ٠٠٠ يسعل دائما ويزوم ٠٠٠ متيقظ ٠

وخرجا من السينما بعد روايتين واهملا الثالثة لتاخر الوقت ، ومع ذلك فقد كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ، وقدرت نبيلة شيئا ، فلم تتردد ، ونظرت فى عينيه بثبات وقالت دون حرج ، كما الغت الالقاب :

ـ اسمع يا احمد ٠٠ دعنى اقترح هذه المرة أيضاً ٠٠ كيف نذهب اليهم مع منتصف الليل ؟ ماذا نقول لهم ؟ وكيف نعلل وجودنا منفردين ؟

سنجعل من هذا اللقاء قصة لا تنتهى على السنتهم ٠

ورأى موجات من النور والظلام تجتاح عقله على التتابع ٠

وعادت الفتاة تكمل :

ـ أنت أخى ٠٠ دعنى اقترح ٠٠ لنذهب الى شقتك !!

واهتز كأنما قذف بحفنة من الماء البارد فى صميم وجهه ٠٠

ـ لا تعترض ٠٠ اننى لا اخاف ٠٠ غدا نعود اليهم ولا نخبرهم بما كان ، ويضيع هذا اليوم بين المنصورة والقاهرة ٠٠

واحس بانتشاء خفيف للفكرة الجريئة التى اهتز لها قلبه ، حتى لقد عضد نفسه فى اعتناقها انه لا يستطيع أن يبرر وجود الفتاة عنده حتى تلك الساعة ٠ ولعله حاول أن يعترض ، ولو على سبيل الاحتياط ، لتكون لديه ذخيرة تتيح له أن يقول : « لم اكن

موافقا » و « ألم أقل لك ؟ » ولـــكنها كانت متحمسة فلم تعبـــأ بتردده ، وحين وضعت أطراف اصابعها فى راحته تبعها ، فلايدرى أهى التى تقوده أم تتبعه ؟!

وفى الشقة ترك لها الحجرة اليتيمة التى تصلح للنوم واغلقها عليها ، وجلس على كرسى فى الحجرة الاخرى ووضع ســـاقيه على النضد ، الذى كان متهالكا فأخذ يتأرجح ويئز .. فنـــام نوما قصيرا .. ومتقطعا .

ولاول مرة فى حياته نهض من جلسته ليجد فتاة جميلة وجهها نضر ، وجسمها رائع وشعرها مبتل أمام المرآة تمشطه وهى تميل برأسها الى جانب فى دلال الفرس الاصيلة المختالة .

هـــــه ...

ولبس ثيابه وتناول الافطاروصافحها مودعا ،ولكنها اخبرته بانها ستنتظر حتى يعود فيوصلها حفاظا على شكليات السفر !!

وقضى اول ايامه فى العمل بعد الاجازة متوتر الاعصـــاب .. دخن ثلاثين سيجارة وشرب عشرة فناجيل قهوة حتى مغصت بطنه .. وخرج على كل عاداته حتى لقد شتم عم زكى فراش المـــكتب العجوز الذى يعامله الجميع كأب !!

وقد يبدو ذلك محتملا أو ممكنا ، الا أن حدوثه فى اليوم الاول عقب الاجازة ـ والمفروض ان يكون يوم ملاطفات وتحايا وحكايات مسلية عن الاجازة ـ لفت اليه الانظار حتى لقد تطرف احد زملائه ، فعلق على التبدل الملحوظ قائلا :

ـ أيوه يا عم .. راحة وبط وفراخ لمدة ثلاثة أسابيع .. لابد أن شمس المنصورة لطشتك .. هو انت دايخ من شوية !!

« كأنك تقرأ ما فى نفسى ... شمس المنصورة لطشتنى بالفعل .. ربنا يستر »

وانتهى من عمله فى المصنع قبيـــل العصر ، وركب ســـيارة المؤسسة العائدة الى القاهرة فتعطلت فى الطريق .. نهايته .. وصل مسكنه فى السادسة .. وهناك وجد نفسه فى جنة صغيرة

لم تخطر له ببال ٠٠ آنسة رشيقة انيقة معطرة وجميلة ٠٠ والشقة رغم فقرها ــ بدت آية فى النظافة والراحة ٠٠ والغداء ينتظر ٠٠ والقلة باردة تغــرى بالشرب ٠٠ وقد خـــلا المطبخ من الصراصير تماما !!

ــ « الله » ٠

هكذا أفلتت من قلبه كلمة الاستحسان ٠٠٠ واكلا ٠٠ ونزلا سلما وصعدا سلما آخر ٠٠ وكنا بعد المغرب بقليـــــل ٠٠ وكان القفل فى الباب !! وتمثلت المشكلة لاحمد على حقيقتها وعنفها فى لمحة خاطفة ، ودارت به الارض ، فقد صوابه حتى راح يصفق بعنف كالمجنون ، فى حين وقفت نبيلة هذه المرة كالغـــريق ٠٠ لا تدرى ماذا تفعل وبمن تستنجد !! وانفتح باب صغير تحت السلم واطل منه بواب هزيل :

ــ مين ؟ مين ؟

ــ البـــواب !!

ونزلا مسرعين ٠

ــ آين اسرة الاستاذ خليل ؟

قال فى أهمال :

ــ كلهم فى اسكندرية ٠

وشهقا معا ؟

ــ اسكندرية !!

ــ هذا ثالث يوم لهم هناك ٠

قال احمد وهو يزفر غيظا :

ــ ولماذا لم [illegible] ذلك من امس ؟

وامسك بذراع نبيلة وقد بدت له خالية من الحياة ، وسحبها الى الخارج ذاهلا ، يلعن البواب فى سره !!

وسكتت نبيلة هذه المرة ، انها لاتستطيع ان تقترح شــيئا ٠٠ ان الحل يفرض نفسه ٠٠ ستنتظر هذه الليلة أيضا ٠٠ ماذا يحدث بعد ذلك ؟ ماذا تقول لاخيها ؟ الى أين تذهب غدا ؟

ووجد أحمد نفسه فى دوامة عنيفة ، ليس امامه الا ان يؤويها هذه الليلة أيضا والامر لله . ومن الفجر تسافر الى الاسـكندرية فتنضم الى أسرة الخالة ٠٠ وهناك ربنا يحلها ٠٠ تعرف شغلها ٠٠ انها السبب !!

وأفضى اليها بخواطره ، فوافقته وهى تحس بالمتاعب التى خلقتها له ، وكانت مطاوعتها له سببا لاحساسه بالالم وخجله من تهربه فى حمل بعض العبء ٠ ولم يتحدثا هذه الليلة ، وان كانت تصرفاتهما فقدت « الحرج » الذى كانت تتسم به من قبل : مد أحمد ساقيه أمامها فى وضع مريح ٠٠ واخذت هى تنثر ضفائرها لتغسـل شعرها غير منتبهة ٠٠ أو غير مكترثة لنظـراته التى يرسـلها ويستردها كومض البرق ٠

وعند النوم بدأ أحمد يستعد للنومة الجالسة . ولكنها نظرت فى عينيه بتمعن ، وقالت بحزم :

ـ سأقترح عليك للمرة الاخيرة ٠٠ لا داعى للتفكير فيما كان ٠٠ أنت اخى اننى اغتصب راحتك ٠٠ هذا شىء غير لائق ٠

وهمس لنفسه : « ماذا تريد أن تقول ؟ » ونهض ليضع النضد فى مواجهة الكرسى وهو يقول :

ـ ولكن ذلك هو الحل الوحيد ٠

ـ مطلقا ٠٠ لقد تبينت انه ليس فى البيت مكان يصلح للنوم غير هذا السرير ٠٠ وسننام فيه معا ٠

ـ معا !! ماذا تقولين ؟

ـ اقول اننى اعذبك ٠٠ هذا حرام ٠٠ لن تجلس طول الليل ٠٠ سأنام ملتفة فى الغطاء وتنام أنت بغير غطاء ٠٠٠ شىء خير من لاشىء ٠٠ هذا كل ما فى الامر !!

ـ لا استطيع ٠٠ هذا غير ممكن ٠

ـ أنه ممكن ٠٠ وسترى ، واذا لم تفعل فسأجلس هكذا طول الليـل ٠

ونظر اليها فى استخذاء كأنه يساومها على أمر محرج ٠٠ لكنه

وجد وجهها مكتسبا باصرار عنيد ... بعيد عن فكرته تماماً .. فلزم الصمت .

قامت الى الحجرة الاخرى ، واطفأت النـــور ، وسمع اطيط السرير بعد قليل ، فتشاغل فى قراءة الصحيفة لدقائق ، ثم مضى الى الغرفة وصورة نبيلة تحتل جانبا من خياله ، وصورة أخـــرى تشوه صفاءها تحتل الجانب الآخر !! وارتطم اصبع قدمه برجل السرير فاستلقى على حافته كأنه متخشب ، وادار ظهره لجـــارته وراح يفكر فى حل مشكلتها وكيف يواجه الصباح ، ثم راح يقسر نفسه على الاستمرار فى مناقشة هذه القضية حتى لا يتحول عنها الى التفكير فى أمر آخر غير مضمون العاقبة . لكنه شرد أكثر من مرة ، وراقب النافذة يتمهل الليل أكثر من مرة . لكن النـــوم لم يقترب من عينيه ، وقضى الهزيع الاول يتلقب وينظر اليها من زاوية فيجدها قد استلقت كطفل برىء ، قسماتها حالمة .. واهـــدابها الطويلة متعانقة .. وانفاسها تصعد هادئة .. دافئة .. تغرى .. هيـــه ..

وتقلبت فى رقدتها فألقت بذراع طرية دافئة على صدره ، سرعان ما انزلقت حتى التفت حول عنقه وكأنها توشك أن تعـــانقه . واحس بالاختناق .. بأنفاسه ثقيلة متقطعة كأنه يجذبها من أعماق بئر .. لكنه ظل متصلبا لا يتحرك .. وبحث عن شىء يفكر فيه ، فتوقف عند كلمة سامى التى قالها على الـــكازينو أول أمس .. وتذكر فكرته عن الضمير ولكن .. « حقا .. هل أنا الذى أخدر ضميرى ؟ أو ان أخته هى التى صرعته برصاصة من ... آه » .

وتحركت مرة اخرى فرفعت ذراعها ، فأخذ يتحسس مـكانها الدافىء على عنقه فى تحسر .. أن ضميره لا يطاوعه على أن يصطنع حركة مثل هذه وهو مستيقظ ، ولو حدثت وهو نائم فانهـــا ستخلو من كل متعة !!

واحس بتثلج قدميه ، وحاول أن يبعد عن خاطره فكرة دسهما

تحت اللحاف ، ولكن برد الدنيا كلها قد تجمع فيهمـــا ، واصبح الحل الوحيد لانقاذهما من الشلل هو ان يضمهما تحت الغطاء ٠

وتسلل بهما فى رفق حتى لامستا قدميها الصغيرتين الناعمتين ، فأحس بالخدر يسرى فى جسده كله ، وتمنى لو يتم ذلك على نطاق أوسع قليلا ٠٠ وكان هذا الخاطر كافيا لان يجذب قدميه ويعيدهما الى البرد متحديا ٠ وادار لها ظهره مرة أخـــرى ٠ وسمع اذان الفجر ففكر كيف يستطيع أن يذهب الى عمله اليوم ٠٠٠ و ٠٠ راح فى النوم ٠٠٠

وتنبه على لحن نشرة الاخبار آتيا من راديو الجيران ٠٠ وجد الضوء يغمر الحجرة من زجاج الباب ٠٠ ووجد نبيلة مستلقية على ظهرها وذراعه هو مستلقية فى دعـــة ٠٠ بين نهـــديها تماما ٠٠ واحس بخدر لطيف يعاوده منطلقا من ذلك المنخفض النـــاعم وما يعمره من بضاضة ودفء ٠ واراد ضميره أن ينهض ولـــكنه تردد وراح يناقش الوضع : « لو اننى رفعت يدى فربما تنبهت فيدركها الحرج ، فلعـــــل الأوفق أن تستيقظ هى أولا ، وستظننى نائما وستنحى يدى وتنهض وهى تحسبنى غافلا عما حدث ٠ ونظر اليها من زاوية عينه ، وخيل اليه أن أهدابها المتعانقة تتحرك ، وانهـــا توشك أن تفتح عينيها فحاول أستجماع ارادته ليرفع ذراعه ولكنه كان عاجزا تماما ٠٠كأن ذراعه خلت من الاعصاب٠٠الا أن طرقا شديدا على الباب جعله يقفز من فراشه مذعورا ويتجه كالمنوم الى البـــاب ويفتحه من فوره ٠

ـ ســـامى !!

ـ نعم سامى ٠٠ أتعجب من وجودى فى القاهرة ؟؟ المسألة فى غاية البساطة ٠ واتخذ طريقـــه الى حجرة الجلـــوس وكان باب الحجرة الاخرى مواربا ـ آ ٠٠ آ ٠٠ أختك هنا ٠٠ انها ٠٠ نائمة ٠٠ ورشقة بنظرة حارقة :

ـ أعرف ذلك ٠٠

ـ وجلسا وجها لوجه، وظل سامى صامتا • وطال الصمت واحمد يبحث عن كلمة بداية قبل أن تصحو نبيلة فتجـــدهما كصنمين ، يجب أن يتضح الامر قبل يقظتها ••

ـ سامى •• هل تشك فى صديقك ••

ـ أنا •• انت •• محال !!

ـ أمر غريب حقا •• و ••

ـ وواضح ••

ـ وانا ••• استنجد بثقتك فهى الحل الوحيد •

واحس أنه أخطأ فى عبارته الاخيرة ، فاستجداء الثقة قد يؤدى الى العكس ، وقد تأكد له ذلك حين قال سامى ونبرة تهكم يستعد للغضب تلسعه •

ـ أما عن الثقة فحدث ولاحرج •• وحين تكون كلمة الدفاع الوحيدة ، فقل يارحمن يارحيم ••

ثم أضاف بعصبية وكأنه على وشك التشنج ـ وهو يلوح بيده فى وجه صديقه :

ـ يا استاذ •• يا •• أستاذ ••

« متى تنجلى هذه الغمة ، أى كابوس ؟ هل أنا احـــلم ؟ لو شاركتنا هذه اللحظات لزاد الامر سوءا • يجب أن ينتهى كل شىء بسرعة •• »

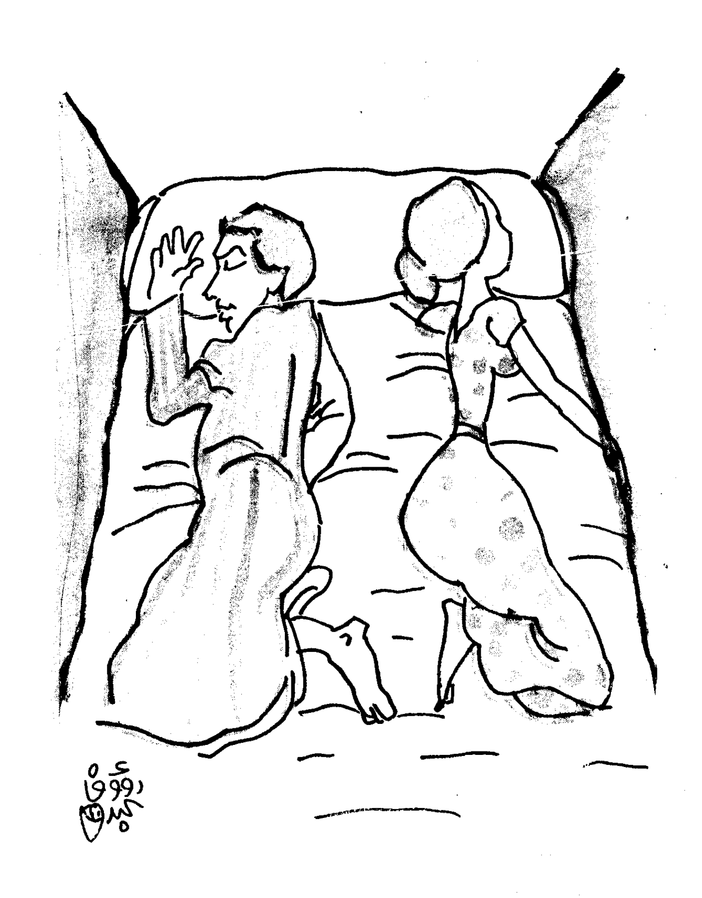
ـ مهما تظن يا سامى • فنحن صديقان • وارجوك أن تتمالك •• لدقيقة واحدة •

ـ اتمالك ؟! الا يدل موقفى الا على منتهى التمالك ؟!
أننا لم نجد خالتك عقب وصولنا ••

ـ قديمة •• استدعتنى الشركة فقطعت اجازتى أمس ، وهناك وجدت خالتى تحتل شقتى •• ف •••

ـ لم نكن نعرف أنها بعيدة عن القاهرة •

ـ فخمنت كل شىء !!



وعرفت نبيلة صوت أخيها فأقبلت من حجرة النوم حافيـــة منفوشة الشعر لحد ما ٠٠ وانتقلت عينا أحمد من وجه نبيلة الى وجه أخيها ليرى آثار مقدمها عليه ٠٠ فرأي عضلات وجهه تتقلص واسنانه تتضاغط حتى وضحت تقاسيم فكه من الخارج — بينما نطلق عيناه شررا ٠٠ وران صمت عميق ووقفت نبيلة فى زاوية الحجرة ولم تجد شيئا تقوله غير أن تردد بلا معنى :

— سامى ٠٠ هل جئت ٠٠ اننى ٠٠ اننى ٠٠

فقاطعها بلهجة حاسمة :

— ما الذى اخرك حتى الآن ؟

قالها ويده تهتز فى تشنج وكأنه يستجمع كل قوته فيهـــا ليصبها صفعة قاتلة على وجه أخته ٠٠ وشحب وجه نبيلة وعادت تردد فى بلاهة :

— انا ٠٠ انى ٠٠

كان قلب أحمد يتمزق والموقف الحرج يضغط على عنقه وصدره فيسحقه ويشل تفكيره لكنه كان يجب ان يقول شيئا ، وليس من الممكن أن تستمر المحاكمة على هذه الشاكلة ٠ أى شيء قد حدث٠ وأحس فى نفسه أحساسا غامضا بأنه لا يمكن أن يسمح لسامى بضرب أخته امامه مهما يكن ٠٠ وتمنى لو أن سامى ظل على تعقله ولم يزد الوضع تحرجا ٠٠٠ وزاد أحساسه بأنه يجب أن يقـول شيئا ٠٠ انه طيب ٠٠ ولكنه لا يستطيع ان يتحدث ٠٠ ان يدافع عن قضية يشارك فيها ٠٠ عن تلك الفتاة المظلومة ٠

— سامى ٠٠ لاداعى ٠٠ لهذا الحديث الآن :

— بل مكانه وزمانه الآن ٠٠ هنا ٠

— بالعكس ٠٠ هنا ٠٠ والآن لن ينصف احدنا الآخـــر ٠٠ ونحن صديقان ٠٠

— ما احلى الصداقة ٠

— ولو ٠٠ سأتحمل سخريتك على أن تخرج معى لنتحدث فى



مكان آخر . وسأحكي لك بأمانة عن كل شيء .

وحكى له بأمانة عن كل شيء ..

ولكن سامي لم يقاطعه بكلمة أو استفهام أو أعتراض مما جعل أحمد يشعر بأنه يتحرك في الظلام ويخاطب الجماد ، ويحلم ببراءة لن تبذل له أبدا .. انه على الاقل متواطيء .... ان لم يكن محرضا !!

ـ سامي .. عندي كلمة .. قبل أن نعود .

ـ تفضـــل

ـ أريد .. أعني .. هل ..

ـ هيه ..

ـ من الطبيعي ان تدوم الصداقات النزيهة .. واني ارجو (بدأ سامي يبتسم ابتسامة غامضة) أن تعرض على الاسرة .. رغبتي في الزواج .

اكتهلت الابتسامة الغامضة .. بل اتسعت لتـــوحي بمعنى العارف ببواطن الامور .

ـ هيه .. و .. هي .. موافقة ؟ .

ـ لم أحدثها بالطبع ٠
ـ لـماذا ؟
ـ لم تكن هناك فرصة ٠٠
ـ ليس عندى أعتراض بالطبع ولكنى لا استطيع أن اقطـــع برأى ولا أظن الموقف صالحا لاعلان خطبتكما اليوم وزواجكما غدا٠

أزدرد احمد ريقه بصعوبة حقا ٠٠ ماذا يفكر ســـامى ؟ ليس لدى ما أخاف منه ٠

ـ وانا أيضا غير مستعد للزواج غدا ٠٠ بل أفضل أن يـكون بعد ذلك فى الاجازة القادمة مثلا ٠٠ اننى لست متعجلا ٠٠
ـ ساعرض الامر ولكنى لا التزم بالنتيجة ٠
ـ سأتوقع أن تكون فى صفى ٠
ـ بالطبع بالطبع ٠

ورأى احمد نظرة الشك تذوب من عينى صديقة لكنها لاتنمحى نهائيا ٠ وايضا ٠٠ فقد ظل يعانى وقع كلماته الاولى « ولكن ماذا يهم مادمت قد رسوت فى مرفا الامان ٠٠ انه مايزال يظن أن فى الامر شيئا ٠٠ مع أنها مسألة ضمير لا أكثر ٠٠ ولو كانت أختى فما كنت أقبل نهاية لهذه المشكلة غير الزواج ٠٠ مهما كانت بواطن الامور٠٠ويكفى أننى أخيرا ساصيرزوجا ٠٠ أية نبوءة اطلقها سامى فى كازينو منيرفا وصدقت بسرعة عصر الصواريخ !! هذا الحبل الذى بامتداده تمتد الحياة قد تعقد عنده . لكنه وجد الحل بأهون سبب عندى » ٠

❖✱❖✱❖✱❖✱❖✱❖

عصفور كناريا

لم يكن فى مسكنى شىء لافت للنظر .. حتى ولا انا !! فهو مثل كل مساكن العزاب الذين أكل الدهر عليهم وشرب فى حياة العزوبية . الا القفص المعدنى البراق ذو اليد الانيقة الصغيرة ، وعصفور الكنارى الاخضر الجميل ووليفته ذات « الكوفية » الحمراء حول عنقها وهما يتواثبان فى أرجائه متصايحين ، او يتارجحان على المقلة المعلقة فى وسطه ، كان هذا القفص هوالشىء الوحيد الذى يلفتالنظرفى مسكنى المتواضع ، ويشعر من يراه أن نسمة جديدة تسرى الى حياتى الداكنة .

أما المسكن نفسه فهو من حجرتين متداخلتين فيهما أثاث قديم بسيط . يكسوه طبقة خفيفة من الغبـــار تحجب بريقه الذاوى ، ولا مانع من أن نلاحظ أن منفضة السجاير مملوءة بالبقايامنذ أسبوع مضى وأن الغطاء لم يسو فوق السرير ومنذ أربعة أيام وأن رأسى صنع فى وسط الوسادة أخدودا عميقا لطول اهمالها ـ الوســادة لا رأسى ـ وربما وجدت بقايا فاكهة فى طبق تحت السرير . وعلبة

بولوبيف أو تونة فارغة على المنضدة الصــــغيرة فى مدخل الحجرة الاولى ·· وثيابى المغسولة تظل مطروحة على الكرسى الاسيوطى الى ان أعود فارتديها قطعة وراء قطعة . دون أن تسوى أو توضع فى الصوان الخشبى الباهت ·

هى حياة – كما ترى – يعيشها الآلاف من أمثالى الضائعين فى زحمة الحياة ·· ليس فيها جديد ، وبرنامجى اليومى لا يدخله أى تعديل الا فى القليل النادر عندما تتذكرنى أمى . أو بالاحرى تتذكر أننى لم ازرها من مدة طويلة فتركب القطار ثلاث ساعات لتقضى عندى بضعة أيام قد تمتد الى شهر أحيانا . وعندما تقدم أمى ومعها من خيرات الريف كنت أراعى وجودها فأعود من الخارج قبل منتصف الليل وربما لا أخرج مطلقا فى بعض الليالى . بل كثيرا ما كان يلذ لى انَ أتوسد ساقها برغم الثلاثين عاما وبرغم أننى فى حجمها ثلاث مرات !! وهى تعبث بيدها النحيلة فى شعرى بدافع العادة . وتحدثنى بآخر أنباء قريتنا ··الميلاد والوفاةوالزواج والخصومات وقصص الحب وحيله ·· وماذا فى الحقل الآن ؟! والحق أن هذه الاسئلة كانت ضرورة بالنسبة لى الا أنها كانت الرباط الوحيد – الواهى – الذى يربطنى بمسقط راسى . لكنها صارت تقليدية رتيبة عندما خفت قدمى عن زيارة قريتنا ، وقل اهتمامى بمجريات الامور فيها ·· ثم لم أعد أسأل عن شىء . وصارت أمى – بدافع العادة أو لمجرد قطع الوقت – تلقى بها وأنا أستمع بنصف اهتمام !! ولكنها كانت أحيانا تنجح فى ايقاظ حنينى لايامى الخالية وتكاد تحملنى على زيارة القرية بعد الانقطاع الطويل ·

ولم يكن حنينى للقرية فحسب هو ما توقظه أمى بزيارتها ·· بل كانت توقظ لونا آخر من الحنين ، وهو لون خطر . اذا تحرك لم يصمت أبدا . مثل لولبى الســـاعة الجيدة · ذلك هو الحنين الى الزواج !! فى تلك الايام التى كانت تزورنى فيها أمى كنت تجد كل شىء فى مكانه . وكانت اللمسة النسائية الساحرة تترك آثارها على كل شىء وتهبه حياة جميلة حتى تخال الاثاث المتواضع يبسم لك

ويرحب بسقدمك !!

وحدث في الشتاء الماضي ان زارتني امي . وفي الشتاء يزداد احساسنا ببرد الفراش ، ويتضاعف حنيننا للحياة الزوجية . فاذا اجتمع ذلك مع تأثير أمي وما تشيعه في جو البيت من جمال وانسجام ادركت مدى التأثير الذي تسلط على أعصابي .. ثم أن أمي طرقت الموضوع ذاته .. ولم يكن للمرة الاولى ولكنني كنت أروغ . أما هذه المرة فقد لذ لي أن أجاريها في رغبتها ولو لمجرد قتل الوقت : تقولين : تزوج !! تزوج !! كأن العرايس في محـــل ولا ينقصني الا دفع الثمن !! وأسحب التي تعجبني من يدها ..

قالت أمي : العرايس في كل مكان .. أطلب تجد !!

قلت متحديا في حماسة : عندك أنت ؟!

ـ ليه لا ؟!!

ـ مثل من ؟

ـ اذا أردت المال والجمال والكمال .. محاسن بنت الحاج مكاوي .

ـ ها .. ها .. ها .. ي .. محاسن ! والحاج مكاوي !؟

قالت متعجبة في اعتزاز : ماله الحاج مكاوي ؟!

ـ بعد خمس عشرة سنه من التعليم اعود لاناسب الحاج مكاوي ها .. ها .. ي .. كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا !!

قالت في اصرار :

ماله الحـــاج مكاوي أنه اغنى من أي رجل تعـــرفه .. خمسين فدان .. ووارثة وحيدة !!

ـ تغور بفدادينها .. هي تجارة !!؟

قالت وهي تمصمص شفتيها : ياعيني علينا !! مالناش في الطيب نصيب ..

ـ أين الطيب في هذا ؟ أهو الفدادين مثلا ؟ الحب .. فقط هو الذي يجب أن يسود . كيف تزوجت أبي ولم تكوني صـــاحبة فدادين ؟

ـ كنت جميلة .. وكان جمالي يساوي الدنيا !!

ـ وهو ما أبحث عنه .

ـ ومحاسن مالها !! على رأى المثل .. فمها واسع قليلا .. ضع عشرين فدانا على جانبيه وهو يصير فى حجم الخاتم .. كل أيام ولها حكم . والناس مصالح . ولن تدفع مهرا . وقد المحوا الى ذلك .. هه .. ما رأيك ؟

ونامت أمى ، ولكن قلبى لم ينم .. وفى الحق أن « مثلى العليا » فى اهتزاز منذ صدمت فى حبى الاول ، تلك الجميلة التى أحببتها وأنا فى البكالوريوس وكانت تحبنى ، وتقدم لخطبتها رجل يعتبر ثريا بالنسبة لاسرتها ولمحوا فى حديثهم فاشترت بالتمهل عاما ، فقد كان وضعى محرجا ، ولكنهم قبلوا الخطبة وتجاهلوا عواطفى وعواطف ابنتهم !! ان الآباء يفضلون العريس الجاهز كما يفضـــل كثير من الناس شراء الثياب الجاهزة وربما كان (التفصيل) آكثر متانة وثباتا .

وعقب انتزاع حبيبتى من بين يدى اختلط حزنى على حبى الضائع باحساس بالمهانة أمام عجزى عن مجاراة خطيبها .. ولقد أنستنى الايام حبى ولكنها لم تستطع أن تمسح الجرح فى نفسى . فما أن تخرجت وعملت بوزارة التموين حتى عشت حياة التقشف الرفيعة، ولم أعد أفكر فى الزواج . وكان يسيطر على وهم دائم وهو أن ما معى من نقود لا يزال أقل مما يجب ، وأن على أن أواصل الجهد حتى احصل على احسن مما يمكن أن أحصل عليه الآن .. وهكذا مضت سبع سنوات وأنا أمنى نفسى بزواج أفضل .. وهكذا الحياة دائما .. تقذف بطوق النجاة للواقفين على الشاطىء وتدع التائهين بين الامواج لرحمة المقادير !!

عندما كنت متواضع الحال زهد فى الفقراء .. وبعد أن شاع عنى امتلاء جيبى خطبنى الاغنياء بلا نقود !!

وبالطبع لم أعد الى الحديث مع أمى عن محاسن بنت الحـــاج مكاوى . فما كنت لاقبل بأى حال أن تكون هذه نهاية المطاف ، وهل يعقل أن يعيش اثنان فى بيت .. بل فى حجرة واحدة ، أحدهما



يحمل البكالوريوس فى العلوم الزراعية والآخر لا يحمل غير شهادة الميلاد ·· هل يعقل أن يعيش هذان فى وفاق ؟ هل يمكن أن تخدر الافدنة اعصاب الزوج الى هذه الدرجة ؟ على أى حال فقد استبعدت هذا الموضوع ولم أعد الى الحديث فيه لا مع أمى ولا مع نفسى ··

وحدث أنى كنت جالساً فى نادى النقابة أتسلى برؤية الرواد ، واذا برئيسى فى الوزارة — أو كما ندعوه : السيد المدير — يدخل والى جانبه سيدة كبيرة ، هى كما يبدو زوجته ، والى جانبه من الناحية الاخرى فتاة فيها منه السمرة والميل الى القصر والشعر الاجعد ·· وخفة الدم !!

وارتبكت قليلا ، وتشاغلت بالنظر الى جهة أخرى ، ومضى الرجل ومن معه الى منضدة فى نهاية الممر — بعيدا عنى — ولكن موقعهم سمح لى باختلاس النظــــر بين الحين والحين ·· الى السيد المدير وزوجته ·· وابنته ·

ولم يمض وقت طويل حتى أحسست بيد تربت كتفى ·· كان السيد المدير !! وكانت زوجته وابنته قد سبقتاه الى الباب ·· وكان وجهه يحمل تعبيرا مريحا غير الذى نعهده فيه أثناء العمل ، فانه برغم سيماه المحببة لا يلين فى أوامره ·· وحيانى الرجل مصافحا ثم مضى ·

ولم تمض دقائق حتى قدم صديقى عزمى ، وهو يعمل معى فى الوزارة ، فى ادارة أخرى .. وقصدنا صالة البلياردو نتسلى ·· قلت وأنا أمسح بالشمع على طرف المؤشر وأنا أحس بيد المدير تربت كتفى : المدير كان هنا !! قال وهو يردد العصا فى دائرة من سبابته وابهامه استعدادا لضرب الكرة :

— ثم ماذا ؟ وضرب الكرة الخضراء ·

— وكان معه ابنته !!

— حلوة ؟ اضرب ·· دورك ·

قلت وقد اتكأت على العصا كأنى أنهى اللعب :

— نص نص ··

ـ نبقى حلوة !!

قلت وأنا أطرق الارض بكعب العصا :

ـ قلت انها نص نص !!

قال وهو يحاور الكرة دون أن يرفع عينه الى :

ـ لكنها بنت المدير !!

ـ هذا لا يغير من واقعها هى شيئا ٠

ـ بل يغير كثيرا ٠٠ أنت ستتزوجها ٠٠ مثلا ٠٠ ولكنك ٠٠ مثلا ٠٠ ستصاهر المدير ٠٠ فهمت !!

ـ لا ٠٠

ـ العب دورك ٠٠ لا ٠٠ يجب أن تفهم هذا ٠٠ لنصاحبك ٠٠ سواء هى أو غيرها ٠٠ لست مراهقا ٠٠ هه ٠٠

وفى الليل وجدتنى أفكر فيها من جديد ـ ولا أنسى أن أذكر اننا كنا فى الشتاء !! ـ وحقيقة هى ليست جميلة ٠٠ لكنها أيضا ليست منفرة ٠٠ انها شابة ٠٠ والشباب له من ذاته اغراء وسحر ٠٠ هل من الضرورى أن تكون على مستوى نجوم السينما أو عارضات الازياء ؟ الا يكفى أن تكون مقبولة ورقيقة ودمها خفيف ٠٠ وأخيرا ٠٠ بنت المدير !! أم أنه ـ كما قالت أمى ـ ليس لى فى الطب نصيب ؟ ـ هل اتجاهل ان المدير هو الذى يضع التقارير وكلمته لا ترد فى الترقية والعلاوة والنقل ؟! ولكن ويلى ٠٠ لقد استعبدت نفسى فى سبيل المال لاحصل على زواج نظيف ، فهل أعود فأتزوج (كيفما اتفق) من أجل المال ؟ ٠٠ كلا ٠٠ انها ليست (كيفما اتفق) هذا ظلم ٠٠ اننى أجمع بين مختلف الاتجاهات فحسب ٠٠ ويكفى انها بنت مدير ٠٠ وأنا مجرد فلاح تعلم ٠٠ هذا احساس نتجاهله ولكنه مستقر فى أعماقنا معشر الريفيين البسطـــاء الذين ارتقوا بحياتهم ٠٠ وهو نفسه الذى يدفعنا للارتباط بالاسر العريقة ٠٠ كأننا نقتبس منها ما ينقصنا ، أو نبحث فى بناتها عما ليس فى بناتنا من أشياء خيالية !!

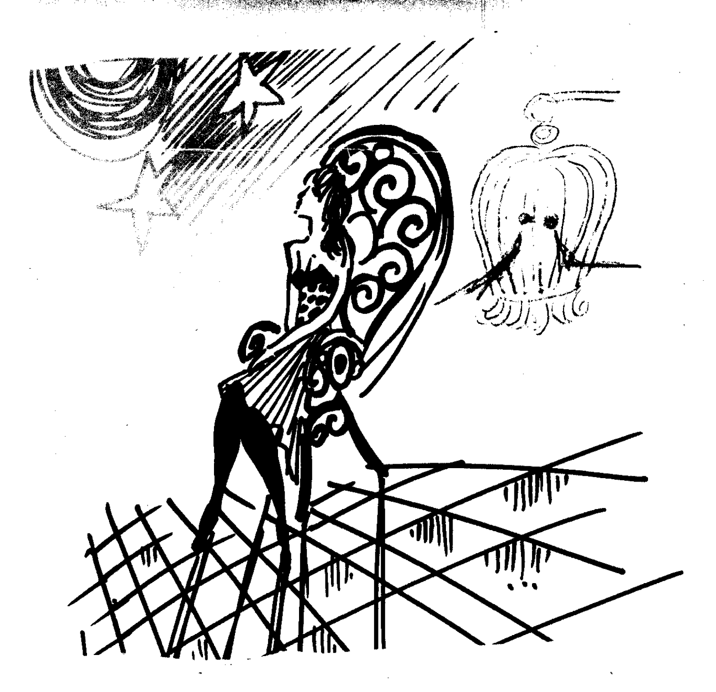
وبعد أرق طويل انتهيت الى التفكير فى (الطب) بجدية بعد أن

تذكرت قول أمي . ومثله قول صديقي انه ليس لى فى الطيب نصيب .. اذا كانت هذه مقاييس كل الناس وطريق تفكيرهم . فهل يجدى فى هذه الدنيا الواسعة أن أقف – وأنا فرد واحد – متخاصما مع هذا التيار العـــام ؟ انهم مازالوا يعجبون بقول فرنكلين ان ظلام العالم لا يستطيع أن يطفىء شمعة !! ولكن .. حقا .. ماذا تفعل شمعة يتيمة فى ظلام هذا العالم !؟ هل يمكن أن تحصل على قطرة عذبة من ماء المحيط ؟!

وفى اليوم التالى أظهرت توددى للمدير ، وفى الذى يليه أطلت الجلوس فى مكتبه وشربت قهوته ، وتحدثنا فى غير كلفة حديثا خرج بنا عن حدود العمل فى الادارة ، وفى اليوم الثالث أعلنته برغبتى .. فاستمهلنى الرجـــــل والفرحة تبدو فى عينيه الذكيتين ريثما يشاور ويسأل .. وبعد أسبوع شد على يدى وهو يعلن الموافقة الاجماعية .. وبعد أسبوع آخر وضعت الدبلة فى أصبعها .. وكنت أختلس اليها نظرات ممتعة وأنا جالس معها ، وأتخيل نفسى وقد ارتبطت بها الى الابد فلا أشعر بتلك الفرحة التى تغمر قلب الخاطب بخطيبته .. لكننى لم أكن آسيا كثيرا .. أن اسرتها تكمل نواحى ضعفها ..

وكان ضروريا أن تعرف « سلوى » مع الايام مجريات حياتى الخاصة ، وما أن عرفت أننى اعيش وحيدا حتى فاجأتنى فى اليوم التالى بالقفص المعدنى الرشيق وفيه زوج من عصافير الكناريا ذات الالوان الزاهية .. ووضعت القفص أمامنا وأخذت تصفر للعصفورين فيجاوبانها بصفير حلو يتفتح له القلب .. ويقتربان من شفتيها المستقرتين على القضبان المعدنية الدقيقة محاولين تقبيلها .. وحينما تبتعد بشفتيها تنتفش الكوفية الحمراء حول عنق الانثى ويرتفع ذيل الذكر فى احتجاج .. ثم يعودان الى التواثب على العقلة أو يتلاقيان بمنقاريهما فى قبلة !!

وحملت هديتها التى تنبىء عن ذوق مرهف ورمز جميل ، انها تريد أن تبدد وحدتى فاختارت أحسن رمز للالفة والمحبة .. وكان



القفص ببريقه وأصواته الصادرة الجميلة دليلا واضحا على أن نسمة جديدة تسرى الى حياتى الرتيبة ٠

ودققت مسمـــارا فى الشرفة وعلقت به القفص ٠٠ وكان أول ما فعلته فى الصباح بعد أن سمعت الصفير ـ أن فتحت باب الشرفة ونظرت فى القفص ٠٠ وهنـــاك كان الذكر منزويا فى جانب ، والانثى ـ ذات الكوفية الحمراء ـ مستلقية على أرض القفص مقلوبة ٠٠ كانت ميتة !!

وتقبض قلبى للمنظر المؤلم ، وأدركت بقليل من التفكير أنها لم تستطع مقاومة برد الليل فى الشتاء ٠

وكان أول ما فكرت فيه أن أسارع باحضار أنثى جديدة غير الفقيدة وأخفى الخبر عن سلوى ٠

وبعد أن عدت من العمل حملت القفص وذهبت الى المحل الذى اشتريته منه سلوى ٠٠ وقلت لصاحب المحل مازحا :

ــ لقد جئتك خاطبا ٠٠ لاحسن عصفورة ٠

ــ وأين ذهبت وليفته ؟

ــ طارت ٠٠ فتحت الباب أضع الطعام فغافلتنى وطارت ٠٠

ــ خسارة ٠٠ انها من نوع نادر ٠٠ اتركه لى أسبوعا ٠٠ وعد لتاخذ الاسرة كلها ٠٠

ــ قلت متعجبا :

ــ ولماذا لا يتزوج الآن ؟

ــ ليس بهذه السهولة ٠٠ الطيور تختار بحرية ٠٠ بالحب وحده ٠٠ سندخل معه مجموعة من الاناث ٠٠ وسيختار التى تحوز رضاه ٠٠ ونخرج الباقى ٠٠

وفى المساء التقيت مع عزمى فى النادى ٠٠ وقبل أن ننهض الى صالة البليارد همست فى أذنه : كلم مديرك أن يأخذنى عنده !!

ــ لماذا ؟

ــ أسأل عصفور الكناريا !!

وسددت المؤشر الطويل الى الكرة الحمراء ٠



الحفل الخيرى



أطفئت أنوار الصالة وأضيئت أنوار المسرح ، وحوم سحابة الدخان والعطور فى جو القاعة الواسعة وقد صار رماديا وانطفأ بريق الذهب والماس الصناعى المعلق بالنحور وعرى المعاطف ذات الفراء ، وخيم صمت مترقب لا يقطعه الا محاولات قلقة لاخذ وضع أكثر ملاءمة لمشاهدة ما سيظهر على المسرح بعد أن انقطع الحديث بين الجلوس . وظهر منظم الحفل ليلقى كلمة الافتتـــاح ، وومضت أربع عيون بشىء غريب . واتسعت حدقتا الصغير الواقف على الكرسى فى الصف الرابع . وهتف مصفقا بيديه الطريتين :

بابا .. بابا ..

وفزعت السيدة البيضاء لاكثر من سبب ، وهمست بنبرات حادة قاطعة :

ـ هس !!

وقاومت ميلا فطريا فلم تتطلع الى أحد ، على حين تطلعت دائرة .

من العيون الى مركزها الواقف على الكرسى، الا ذا العيون الذهبية الجالس الى جانب الصغير من الناحية الاخرى . فانه جمد ملامحه ، وسمر نظراته على خشبة المسرح · وقال منظم الحفل :

ـ ··· واخيرا اشكر لكم تفضلكم بتشريف هذا الحفل الخيرى الكبير ·

واختلجت سيقان السيدة البيضاء ، ورقصت اهدابها فى قلق ، وهى ترمقه لحظة انسحابه من فوق المسرح · انها الآن تراه ، ويجب أن تظل على معرفة دقيقة بموقعه فى هذا البناء الواسع · ومدت انامل رشيقة وسحبت القفاز عن يدها الاخرى ، فأتاحت لها هذه الحركة أن ترمق صاحب العيون الذهبية بنظرة تحية سريعة فوجدته قد وضع ساقا على ساق ، واستراحت يده بين ركبتيه ، كأنما يدفئها وكانت حافة ظفره تنقر عظمة ركبته فى لحن ساخر ·· « انا الذى اشكرك على جهدك فى هذا الحفل الخيرى ·· هذا الشبل الصغير ؟ · كلا ·· الشبل بن الاسد ·· هذا ال ·· الحمل الوديع من السهل الهاؤه » ··

وعاد المنظم الى المسرح ، وابتسامة طيبة تكسو وجهه . وشعره المفروق من الوسط ينسدل بعناية على صفحتى وجهه الاسمر الممتلىء، والقى نظرة خاطفة على الكرافات الحمراء ليطمئن على وضعها ، كما وجد الدبوس الذهبى ذا الفص الياقوتى فى مكانه ، فأحس بمزيد من الثقة ، وقال بصوت هادىء ينم على خمول ناعم :

ـ الآن يبدأ البرنامج ··

« نعم ·· سيبدأ البرنامج ، من أين تؤكل الكتف ، ما أحلى الكتف ، وما تحت الكتف ، وما تحمل الكتف ·· » ونفخ من غير سيجارة ، فتذكر قوارب النجاة التى أعدها ونشر أشرعتها فى جيبه، ودس يده المتوترة فى جيبه ، فجسمت حركة عقله وما يدبر من حيلة وتراجع فى كرسيه وأنزل ساقه ومدها بشـــدة ، فجسمت مدى احساسه بالنشوة المقبلة وما ينتظر من قطف الثمار ·

ـ شوكولاته !

قالها همساً وهو يمد القطعة ذات الغلاف الفضي البراق أمام عيني الصغير . ويده الاخرى تداعب حمائل البنطلون الهيلانكا وحدق الصغير في وجهه فرأى الامل الحار الذي يطفر منه ، فالتفت الى الناحية الاخرى . فوجد النظرة ذاتها تلقاه !! عجب !! أين ذهبت النظرة المنذرة التي تجمد حركته كلما قدم اليه أحـــد شيئاً وهم بأخذه !!؟ واســــتنجد بأبيه لكنه كان قد مضى عن المسرح وكان البهلوان يتشقلب ، فأخذ يتابع حركته وقد أعجبه على الخصوص وجهه الملون وانفه الاحمر وسرواله العفاريتي .

ـ شوكولاته !

وربتت السيدة البيضاء ظهر الصغير براحة يدها الخالية من القفاز . فانصرف قليلاً عن متابعة البهلوان ونظر اليها ، فوجد الامل الحار يخبو لتخلفه نظرة لا تخلو من قساوة الامر ..

وتردد قليلاً ، ونظر الى الناحية الاخرى ، فتشجع الآخر بالحركة وقرب يده أكثر وراح يردد :

ـ خذ .. شوكولاته بالحليب .

واهتزت يد الصغير تريد أن تأخذها .. انها بالحليب ، وفرح الآخر باقتحام العقبة ووجدها فرصة ، فمد يده ليربت ظهر الصغير من فوق اليد الخالية من القفاز ، وأحس الصغير بثقل اللمسة ، فترنح فوق الكرسي وقال متأففاً :

ـ لأ .. مش عاوز .

ـ ليه يا حبيبي .. ؟

ـ كده .. مش عاوز .. بابا .

ولم يسمع أحد . فقد كان البهلوان يطلق في الجو خطـــاً من البودرة ينطلق من خلفه كذيل طويل . والجمهور يضحك ويتكلم ويصيح . وقال منظم الحفل :

ـ والآن بعد هذا الفصل الضاحك .. نصل الى لحظة الخطر .

ونظرت السيدة البيضاء عبر الصغير نظـــرة ذات معنى :

« لو خطر حبك في بالي . والا زار طيفك خيالي » وتطلع الآخر في

ساعته بقلق . يقيس الفصـــل الضاحك . ويقيس عليـــه ٠٠
« لا يخدعني الوقت ٠٠ »

وكان منظم الحفل قد انتهى من تقديم الفصل الثاني في الالعاب البهلوانية . وراح يعد المشهد الثالث وراء الـــكواليس . وكان يهتف بصوت مبحوح من الجهد :

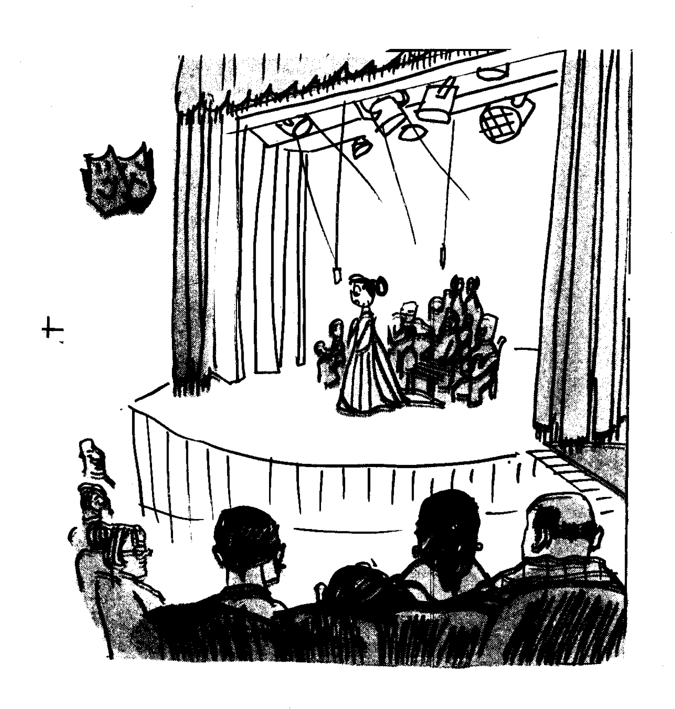
ــ لا يخدكم الوقت ٠٠ هيا

وفتيان المشهد الثالث يعاون كل منهم صاحبه في ارتداء ثوب من الوان العلم ، النشيد الوطني ، ويناسبه الشعـار الرسمي ٠ وحين اطمأن الى أن المشهد الثالث قد اعد أحس براحة نفسية عميقة ونظر في لوحة البرنامج ــ على الرغم من انه يحفظه ــ وتقـــدم خطوات واطل بنصف عين من بين طيات الستارة الضخمة ، فبدت له القاعة الفسيحة كبحر لاساحل له ، ورؤوس المشاهدين تطل متراصة كالقواقع . وكان الخوف والترقب يطلان من العيـــون الشاخصة الى أعلى ، تتابع اللاعب فوق العقلة السابحة في فراغ المسرح « هذه نمرة ناجحة ٠٠٠ كلهم فزعون ٠٠ الولد شـــاطر بهلوان ابا عن جد »٠٠

ــ « الولد شاطر لكن ابوه ٠٠ صاحبي !! من أين له هـــذه الحماسة ؟ هل عرفت أحدا قبلي ؟ »

ــ « ليتني سمعت النصيحة وتركت الولد في البيت ٠٠ أينا في خدمة الآخر ٠٠ ؟ »

وفشل اللقاء الاول فوق ظهر الصغير عبر يد خالية من القفاز . لكن هل نفدت حيل العشاق يوما ؟ كما تتوالى مشاهد هذا الحفل ستتوالى محاولات لقاء محموم رسمه الخيال ويعجز الواقع المزدحم عن تحمله ٠ وانزل يده عن ظهـــر الصغير وكذلك انزلت يدها ٠ ولكنه ظل يداعب ساقي البنطلون الملتصقتين بالجســـد الغض . ويحاول أن يقضي على آثار لحظة التمرد التي زاولها الصغير وقد بالغ فيها ٠ واحتفظت هي بيدها على حافة كرسيها فكان من السهل عليه أن يحرك يده في دائرة صغيرة فتمس وبسرعة يدها المتعطشة



للقاء يده . وكان الصغير يتابع قفزة البهلوان فى فراغ المسرح . فأحس بالخوف ولجأ بنظراته الى أمه يلتمس عندها الامان ، فوجدها مسبلة العينين لاتتابع المشهد الخطير ، فعجب كيف تنام أمه فى هذا الحفل الجميل ، ولكنه حين تطلع الى الناحية الاخرى وجد (كم) الجاكيت يتحرك بتوتر دائم ، تابع الذراع الممتدة وفى حسه دهشة لماذا تتحرك الذراع ولايحس حركتها كما كان من قبـــل ، وتطلع خلفه فألفاها تعابث اصابع الاخرى فى الفراغ ما بين ظهر الكرسى وجسمه هو .وسقط جالسا على الفـــور ، وتيقظت الام كالمذعورة وسحب الآخر يده فى ضيق ولم يعمل فكره فيما دفع

الطفل الى الجلوس « انه طفل ·· قد تتعقد حياته حين يصير صبيا وفتى ! وما شأنى ·· انه على أى حال ليس طفلى ولعلى أنا أيضا اتصرف بوحى تجربة طفلية غائبة عن ادراكى ، ولعلها تستجيب لى انسياقا بتجربة اخرى مختلفة شكلا ونوعا · ؟

ـ والآن سيداتى وسادتى ·· جاء دور الغناء ·

وتأوهت السيدة البيضاء بحنان زائد وهى تداعب عنق الصغير براحة يدها ·· مقدمة لسياحة أخرى فى عالم المحبوب ، وقاست بعينيها المسافة بين الواقف على المسرح ـ والجالس قريباً منهــا « كل يغنى على ليلاه ·· ليت المعجزة تحدث وينام الصغير ·· » لكنه كان قد جلس بشىء من اليأس ، وهو يحس كراهية عميقة للساق التى تدق الارض على ايقاع النشيد ، ويرن صوتها مزعجا فى اذنه يغطى على صوت فرقة الانشــاد ، والموسيقى وهمهمات الصالة الواسعة التى انفعلت باللحن الحماسى والسيدة البيضاء تتــابع النشيد وتتساءل متى ينتهى ليبدأ مشهد آخر من الألعاب يعقد الصمت من جديد فوق كل الناس ؟ ·

وقالت فرقة الانشاد : « نحن الشــباب لنا الغــد » فأكملها ذو العيون الذهبية وهو يرمق الصغير بغيظ : « وحبنا مهــــدد » وتشاءمت البيضاء من التأجيل الى الغد وكان منظم الحفل يقفـــز محتضنا مساعده ، وهو يكبح جماح نفسه أن يصيح اعجابا ، وقبل مساعده قائلا بتوتر :

ـ اخراج النشيد ·· رائع ·· والصوت مناسب جدا ·

ـ الحمد لله :: ربنا يستر فيما بقى ·

ومال ذو العيون الذهبية نحو السيدة البيضــاء يهم بالــكلام ، فمالت نحوه لتكون اقرب ما تكون اليه · واحس الصغير بما يجرى فأشرع أذنيه · :

ـ يبدو انه يريد أن ينام ·

ـ يبدو ذلك ·

وتضايقت من اجابتها الموجزة ، مع أن الحديث يتيح القرب أكثر ولقاء الانفاس وتأمل العيون والشفاه ٠٠

ــ انه عادة يذهب الى فراشه حوالى التاسعة ٠٠

ــ لقد تجاوزها بساعة ، ولكن لماذا عودتموه السهر الى مثل تلك الساعة المتأخرة ؟

ــ ماكانت مثل هذه الليلة في الحسبان ٠

وركز نظرته على صدرها ، وابتسم وقد اغضى خوفا من نوع الاستجابة :

ــ عوديه منذ الغد أن ينام مبكرا ٠٠ فهذا أحسن لاعصاب الاطفال ٠

ودار رأسها ، لكنها تمالكت هامسة :

ــ واعصاب الكبار ايضا ٠ واستدركت : أعنى أنه يرهق والده بصياحه وهو يحب أن يخلو الى نفسه كثيرا ٠

واحس الصغير بأن الحديث قد طال اكثر مما يجب فاعتمد على يديه ووقف فوق كرسيه بغتة ، حتى اوشك أن يصدم ذقن احدهما وأنف الاخر ٠ ووضع يده على كاهل أمه بعصبية وهتف غاضبا : مش عاوز أنام ٠٠

ــ على كيفك يا حبيبى ٠٠

ــ لا ٠٠ مش عاوز أنام ٠٠ ليه انام دلوقت ؟

وقفزت يد الاخر بقطعة الشوكولاته مقرونة بابتسامة واسعة مشجعة ؟

ــ اذن ٠٠ خذ هذه ٠

ــ هات ٠ هه ٠

وخطفها خطفا ٠٠ وقبل أن تستقر في يده كانت قد طارت فى الهواء ، واستقرت بعيدا حيث اصطدمت بكتف أحد الجلوس ، وجمدتهم الحركة المباغتة ٠ سكتت السيدة وصاحبها حتى لايفطن أحد لمصدر القذيفة ، وسكت الصغير انتظارا للعقوبة التى لابد أن

تلحقه . وعبست ملامحه انتظـــارا لما ســـيحدث . وأعد حلقه ليطلق حنجرته على الآخر حين تمســـه يد ، وتملكه الغضب فلم يفطن الى أن الصالة تسبح فى هالة من الضوء للاستراحة وان يد الآخر ممتدة بقطعة اخرى ابهج شكلا واكبر حجما من السابقة ، ومعها ابتسامة اكثر اتساعا ، ويقول همسا :

ـ خذ هذه .. لكن .. عيب ترميها .

ونظر الى امه من جديد ، وهو مايزال يذكرحقها الذى لم تستعمله فى العقوبة عن القاء السابقة ، فلم يجد فى عينيها ما يتـــوقع من الغضب ، وانما هو الرجاء الخالص .

وفى حيرته انتشله صوت عزيز :

ـ لا تكن مشاكسا .. خذ الشوكولاته من عمو .

وتعلق بصدر أبيه هاتفا براحة عميقة : بابا .

وحمله بين يديه وقدم له قطعة الشوكولاته ذاتها ، فلم تطل حيرته أمامها ، واستقرت بين أسنانه ، وراح يلفظ غلافهـــا المعدنى بغير عناية ، وقد زال خوفه تماما .

وسأل السيدة البيضاء وصاحب العيون الذهبية :

ـ هل قدم أحد كما شيئا ؟

فقالت السيدة بابتسامة حاولتأن تجعلها متوددة أكثر مما ينبغى فى المحافل العامة كأنها عروس فى شهر العسل :

ـ وهل هذا أول بخلك !؟

ـ لقد أرسلت لكم شايا .. فالجو بارد نوعا .

وقال الآخر شاك[illegible]لا داعى للتعب ، وأن كان الصغير يشـــعر بالبرد فعلا .

ويسمع الصغير اسمة يردده صاحب الشوكولاته المرفوضـــة ، وخشى أن يشاركه فى أبيه ، فقبض براحته على ذقن أبيه وجذب وجهه نحوه ، يمنعه من الرد على ما يسمع ، وهتف بعجلة :



ـ بابا .. بابا .. عاوز أشرب .

وقال الاب باستجابة تلقائية : حاضر .. من عينى . ولكنه تطلع فى ســـــاعته بقلق ، وعاد يكمل : اذهب مع عمو ليسقيك وتعود لتشاهد ما ساعده لك الآن ..

ورفس برجليه ولوح بيديه محتجا ، ولكنه نهره بخفة وهو يودعه بين يدى الآخر . وقد رحب بالمهمة ، وحمله بعناية كأنه من زجاج ، وحاول أن يفلت من بين يديه ويعلن أنه متنازل عن تلك الشربة . ولكن نظرة تأنيب من والده أتته وهو يغادر المكان كما كان الآخر قد ألصقه بصدره ، يمنعه من الحركة ويرضى به شوقا . أقوى ..

وصمت الطفل .. حين حاول الآخر استرضاءه فى الطريق الى الحمام ، وحين حاول تجديد عصر الشـــــوكولاته وحين حاول اثارة انتباهه لمشاهدة ما يجرى على المسرح ..

ونام ·· تمدد على ساقى غريمه وبسطت عليه بطانية صغيرة ، كانت ساترا جيدا للقاء الايدى فوق جثته ، كما وجدت السيقان فرصتها للتلاحم وتفترق فى ومضات متشنجة ·

★★★

وحين تمدد منظم الحفل فى سريره كان يبدو عليه الانهاك ، وكان يتعجل زوجته أن تبدل ثيابها وتطفىء النور ، فقد تعبت يده من تعلقها بين المصباح وعينيه · وحين تمددت الى جواره سألها ملحا أن تصدقه الجواب :

ـ هل كان الحفل ناجحا ؟

وقالت بحرارة : كان ناجحا جدا ··

وابتسم فى ظلام الغرفة راضيا عن نفسه ·· لقد استطاع أن يدخل السعادة الى قلوب مئات من الناس ·



المعديّة



كان فى قلبى فرحتان ‥ استطعت أن أكون « معاون صحة » بعد حصولى على التوجيهية بعام واحـــد . وأيضا أهلنى تقدمى فى التخرج من مدرسة معاونى الصحة للتعيين فى مكتب صحة الروضـــة بجزيرة المنيل بالقاهرة · ولعلك توافقنى على أن « معاون صحة الروضة » ليس بالمنصب الذى استحى من طبعه على بطاقتى فى زماننا هذا ·

لم يكن يفسد فرحتى بعض الشىء الا اقامتى مع ثلاثة طلبة فى شقة واحدة على سطح احدى العمارات الجديدة باقصى مصر القديمة · ويرجع تاريخ صداقتى لرفاقى فى السكن وارتباطى بهم الى أيام التلمذة فى مدرسة شبين الكوم الثانوية ، وقد كان أربعتنا غرباء عن شبين أيضا ‥ وبمعنى أبسط ‥ من الفلاحين · وتركنا المدرسة الثانوية معا ولما كان أبى لايستطيع أن يتحمل مزيدا من الاعباء فقد قررت ـ أو أجبرت على ـ تجنب طريق الجامعة الطويل ، والبحث عن معهد متوسط يستطيع أن

يؤهلني للحصول على مرتب بعد عام واحد . ولقد فضلت مدرسة معاوني الصحة على غيرها من المعاهد المتوسطة لأنها مضمونة النتيجة .. أعني .. مؤكدة الوظيفة .

وهكذا ظللنا نحن الرفاق الاربعة على تلاقينا القديم ، وجمعتنا تلك الشقة المتواضعة كل مساء . وفى الصباح كان ثلاثتهم يذهبون الى كلياتهم . واذهب أنا الى معهدى .. كانت حياتنا استئنافا لحياتنا السابقة فى شبين الكوم ، فلم يكن فيها من جديد الا ما يحس به طالب الجامعة من الزهو والاعتداد بنفسه ، وما يحس به ساكن القاهرة متواضع الحال - عندما يراها لاول مرة ويعايشـــها - من الضآلة والضياع عندما يمر بالترف المعروض فى « فترينات » شارع ٢٦ يوليو أو قصر النيل .. والفتنة المعروضة فى كل مكان ..

ومضى العام الاول ونحن طلبة . وأقبل العام الجـــديد ونحن موظف - هو أنا - وثلاثة طلبة !!

وكنت أحس بزهو مضاعف عندما أضع - على المكتب - أمامى أول كل شهر اثنى عشر جنيها كاملة ، فأدفع حصتى فى أجر المسكن ومبلغا معقولا للاكل - تحت الحساب - ثم يتبقى معى بعد ذلك مبلغ يكاد يعادل ما يتلقاه كل منهم من أسرته لمأكله ومسكنه ومصروفه الخاص أيضا !! اننى اربح وأقبض مرتبا وهذه لذة .. وأنهم لا يربحون .. وهذه لذة كبرى !! وكانت فرحتى بمرتبى لا تخفى عليهم ، وكانوا يقفون فى طريقها فلا يتركون لها العنان لتنطلق ، فهم يرفضون - مثلا - ان يشربوا الكولا على حسابى بحجة أنه يجب على أن أحافظ على نقودى فأدخرها لبناء أسرة ولحياة طويلة لا ندرى ماذا يمكن أن يحدث فيها .

وكانت - أيضا - تنشط حركات معادية لى فى أوقات معينة - أول الشهر مثلا - فهم يكثرون أمامى من ترديد كلمات « الليسانس .. والبكالوريوس .. والدراســـات العليا .. والماجســـتير .. والدكتوراه » .. ويتحاورون طويلا عن الزميلة فلانة والدكتور علان وصداقة ضابط الحرس وثقة المشرف الرياضى !! وكنت أنا المحروم

من الحديث على هذه الشاكلة أتأثر بذلك وأتألم . واذا حاولت تصنع عدم الاكتراث بتجاهلهم أو مشاركتهم الحديث فانني كنت افشل !!

وكانوا ينظرون الى الى بسرور شرير . ويختمون حديثهم الموسمي هذا برنة أسف مصطنعة ـ لاتخفى على ـ وكأنهم ينعون الى حظى التعس : « هنيئا لك يا عم .. أخذتها من أقصر طريق وصرت موظفا حكوميا قد الدنيا .. اما نحن .. فياعالم .. بعد كل هذا سنجد الوظيفة أو يتلقفنا الضياع !! »

هل عرفت الآن كيف أعيش في البيت ؟ صداقة قلقة مضطربة . تستحيل في أوقات معينة الى عداء وحقد .. يتكشف كل يوم عن دليل جديد على أن سبلنا أصبحت على وشك الاختلاف التام . وفراغ هائل يبدأ من الساعة الثانية بعد أن نغلق المكتب . ولا ينتهى الا في صباح اليوم التالى .. ولا أدرى كيف ابدده .

وفجأة .. بعد أن فرغت حياتى من الكتب والتفكير في المستقبل . وبعد أن خلت من الصداقة المريحة أيضا . وجدتنى أفكر في الحب !! افكر فيأن أحبوأتزوج!!وطبعا «معاون صحةالروضة»لم تعد توافقه بنت الشيخ أو الحاج القابعة في قريتنا والتي كان كل مؤهلاتها أنها بيضاء مثل القشطة وتحمل قنطارا من الدهن في ساقيها وعجيزتها .. و .. و .. الخ هذه المقاييس القديمة في الجمال والتي مازال الريف جريا على طريقته المحافظة النزاعة الى الاســــتقرار ـ يصر عليها . كما لم يعد يغرينى ان اباها عنده طينأو أنها خياطة أو ست بيت .. انني أريد امرأة تستطيع أن تضع يدها في يدى على كورنيش النيل وأن تذهب معى الى السينما الصيفى .. وأيضا ـ ولاقلها بصراحة ـ موظفة تزيد دخلنا بشكل منتظم حتى نستطيع ان نحيا على مستوى محترم .

وقد نختلف أنا وانت في الصفات التي يمكن أن اوصف بها . لكنه ـ على أى حال ـ ستكون النتيجة واحدة . فقد تصر على أن تسمى تريثى الهادىء بلادة أو تفكيرى المتزن البعيـــــد عن الطيش والحماقة جبنا !! وأيا ما كان الامر فقد تخلصت عن « المصادمات »

التى يخلقها لنفسه الباحث عن زوجة · حقيقة ·· لماذا « أبرطع » وألهث فى سبيل البحث عن زوجة ؟ ان الظروف هى التى تصنعنا · وقطعا ـ طال الزمن أو قصر ـ ستوجد الظروف التى تجعلنى يوما ما أمام امرأة ما ·· وجها لوجه !!

وكانت اقامتى فى أقصى مصر القديمة ، وعملى بالروضة تجعلنى أفضل ركوب المعدية ذات الجنزير التى تعبر الفرع الضيق من فرعى النيل اللذين يحتضنان جزيرة الروضة على هيئة قوسين · وقد جعلنى النظام الرتيب الذى أعبر به كل صباح وكل ظهيرة أتعرف على كثير من الوجوه التى تعبر معى ·· أطفال ذاهبون الى رياضهم بوجوه جميلة وأشرطة ملونة ·· بائعو سمك بثياب مبتلة تفوح منها الزفارة ·· بائعات خضر فى ثياب فضفاضة تكنس الشارع وفتحة صغيرة تحت الابط توضع فيها النقود توسوس فيها القروش والملاليم كلما اهتز الكيس المعلق فى الفضاء بين الجسد والثوب ·· وأخيرا ·· سيدات أنيقات يفوح منهن العطر ، وتفوح منهن رائحة أخرى يحسها المحروم ·· وطالبات جميلات فيهن رشاقة وحيوية تزيدها البساطة سحرا ·· الارداف المتبرعمة تحت « الجونلة » والصدر البارز تحت القميص الابيض الذى يشف عما تحته ، وأربطة « السوتيان » اللبنى أو البمبى التى تقسم أعلى الظهر الى مستطيل فى الوسط ومربعين على الجانبين فى حجم قبضة اليد !! كل هذه أشياء كانت تفعل بى ما هو أكثر من الاثارة · ولكنى ـ كما قد علمت ـ شخص مريت أفضل انتظار الظرف الملائم ·

وقد حاولت أحيانا أن أكون أكثر من متفرج فى المعدية ، وتخليت لبعضهن عن مكانى رغم أن مدة التعدية لا تزيد عن ثلاث دقائق · ولكن الخطوة التى يجب أن تلى ذلك لم تأت أبدا ··

أما المكتب الممتلىء بالامهات اللآتى حضرن لتطعيم أبنائهن وبالفتيات يحملن أخوتهن ·· فان نشاطى الكسيح فى المعدية كان يعد عملا عظيما بالنسبة لحركتى المشلولة تماما فى المكتب ، فقد « رزأنى » الله بدكتور متخرج حديثا وفرحان بشبابه ومنصبه · وكان يزهو

بالبالطو الابيض والسماعة المدلاة من عنقه والتى تتأرجح على صدره أينما سار فى أنحاء المبنى (مع أنه لا يستعملها) · وكان يتلطف مع النساء ويسمع لهن كل ما يقلنه وما يثرثرن به عن انحراف صـــحة أطفالهن أو اخوتهن ، وكان يمزح كثيرا ويداعب الاطفال والمصاحبات لهن أحيانا ، وقد جعله ذلك الشخصية المرموقة فى المكتب كله ، وجعل من باقى الموظفين أصفارا فى الهواء ، وبذلك قضى على أى أمل فى أية محاولة للفت الانظار ،ولم يعد توددنا نحن الموظفين الى المترددات يجدى علينا شيئا ، ومن ثم فقد كففت عن التودد وملاينة القول أيضـــــا ، كما صرت أكره الدكتور والمكتب والمترددات عليه ·

وفى صباح يوم بارد من أيام يناير كنت أجلس فى المعدية .. وكانت كل أرائكها الموضوعة على هيئة مربع مفتوح قد شغلت ، وبدأ العامل فى جذب الجنزير ولكن واحدة ممن يعبرن معى كل صباح ظهرت فى السلم الهابط الى مستوى الماء ، فتوقف الرجل عن الجذب وقفزت المرأة نصف خطوة ثم وقفت فى وســط المعدية بين صفوف الجالسين ، فلم يرقنى هذا المنظر ، وبدافع الرجولة ، وبدافع آخر يمكن أن يرجع فى نهايته الى (الرجولة) أيضا وقفت وأنا أشير الى مكانى قائلا : تفضلى هنا ·

وتجنبت وصفها بالآنسة أو السيدة لأن مظهرها لم يكن يدل على وضع معين !! وفى الحق ·· أصبح التفريق بين الآنسة والسيدة بعد أن صرن جميعا يضعن أحمر الشفاه ويلبسن الكعب العــــالى ويرفعن صدورهن ما أمكن ويقوسن حواجبهن أصبح التفريق أمرا صعبا للغاية ·· ونظرت الى فى لمحة سريعــة وقالت وهى تشير الى المكان : أظنه يتسع لنا معا ·

ورأى جارى التلميذ الصغير أن يحمل حقيبته على رجليه وأن ينكمش قليلا ، وصار المكان بالفعل يتسع لنا معا ، فجلسنا بينما نزل الى المعدية آخرون وظلوا واقفين ·

وبدأ الجنزير يتحرك ، والمعدية تنساب بسهولة فوق الماء ، كنت

أتمنى أن لو ظلت تسبح هكذا بغير توقف !!

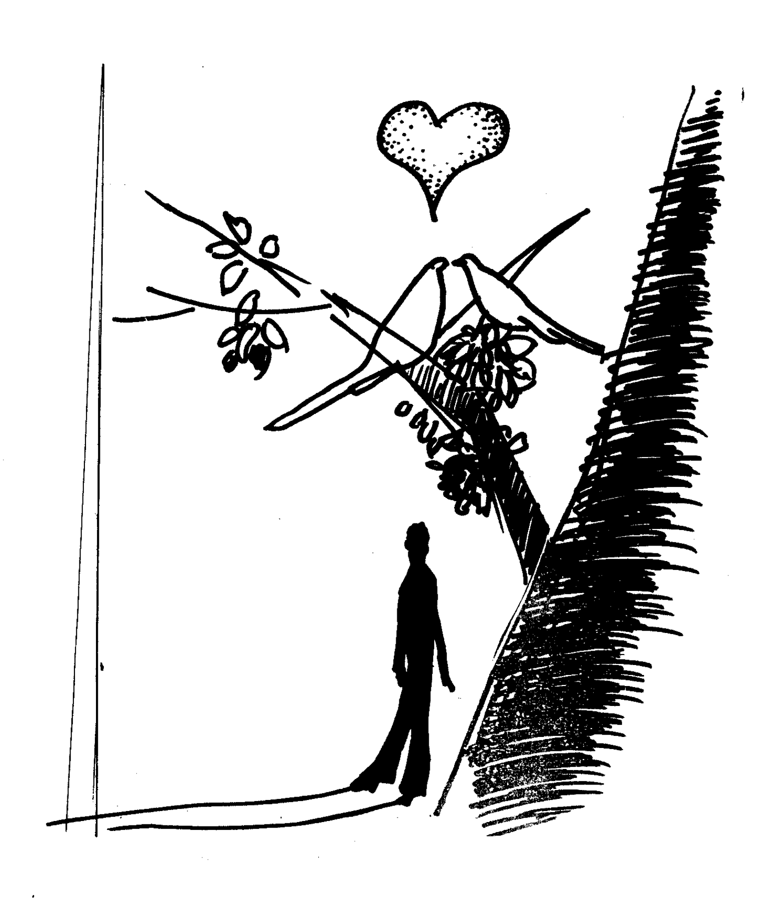
كانت جالسة توحوح من البرد برغم الثوب الصوفي والبلوفر الكحلي الانيق الذي يضغط على خصرها وصدرها وكانت تفرك يديها في عدوء فيختلج جسمها قليلا مع حركة ذراعها .. ووضعت ساقا على ساق وشبكت أصابع يدي واحتضنت ركبتي بين راحتي وأخذت أضغط عليها بشدة . ونظرت الى المرأة من جانب فرأيتها في ذات المحاولة ،فالتقت نظراتنا في لمحة خاطفة .ثم تشاغلت عني باللعب في قفل حقيبة يدها والاستعداد للقيام ، فقد كنا نقترب من الشاطىء الآخر .

وقامت .. وشكرتني بابتسامة ورددت عليها باسبال جفني وكأني أقول : العفو يافندم .. ليتني أستطيع أن أقدم أكثر من ذلك !!

وقفزت الى الشاطىء .. في رشاقة وتعمدت أنا التأخر عنها قليلا، ثم تبعتها من بعيد حتى دخلت مدرسة للاطفال . وفي ذلك اليوم وفيما تلاه من أيام وليال صرت أفكر فيها كثيرا . وكنت أستجمع شجاعتي اذا نزلت الى المعدية وهي فيها . فأقول : صباح الخير . ولكني وان كنت أعنيها فقط كنت لا أنظر اليها حين القاء التحية . وبذلك كنت أعطيها طابع التعميم ، وكانت ترد بصوت خافت لكنه مسموع لي وبخاصة اذا راقبت شفتيها الورديتين ، وكانت تبتسم لي اذا وجدتني سبقتها والحقيقة أنني كنت أتوق لشيء أكثر حيوية من مجرد تحية مغلفة أو ابتسامة مختبئة . ولكن ماذا كان يجب على أن أفعل ؟ كنت أسأل نفسي هذا السؤال كثيرا : ماذا يجب على أن أفعل؟ .. انني غير مقصر ، افعل كل ما يمكنني في وسط جمع حاشـــد في المعدية ، وعندما يحين ظرف ملائم فانى لاشك ســـأكون أكثر ايجابية معها .

وأخيرا .. حان الظرف الملائم ..

كانت ليلة ممطرة غائمة ، وكنت في زيارة صديق في المنيــل ، وعندما اخترقت الشارع المواجه للمعدية لمحت فانوســها يلعب به الهواء عند الشاطىء الآخر فقدرت عشر دقائق باردة حتى تعود الى هذا الشاطىء .. وأخذت أدعك يدى في قلق ، وعندما وصلت الى



السلم الهابط الى مستوى الماء فضلت النزول لاحتمى بالحائط ـ الذى يسند السلم ـ من لذعات البرد · وما كدت أصل الى آخر درجة وادور نصف دورة حتى رأيتها هى الاخرى واقفة فى انتظار المعدية ··

اهتز كيانى كله كأنى صدمت بأنوار باهرة بعد أن تعودت الرؤية فى الغبش ، وهبطت وهبط قلبى كمن فاجأته سيارة مسرعة فى منعطف ·· وبعد لحظة دوار حاولت أن أتماسك ، وقلت فى نفسى : هذه فرصتك ، وقد لا تعوض ·· كن رجلا ·· انها على أى حال لن تقتلك !! ولو أهانتك أو صدتك فانك تستطيع أن تنسى ذلك سريعا وتضيفه الى قائمة هزائمك السابقة المطوية ·· فلا أحد يراكما ··

وتقدمت نحوها وأنا أضع يدى اليمنى فى جيب الجاكيت يأسا من المصافحة وقلت بصوت يحاول أن يبدو طبيعيا :

ـ مساء الخير ··

قالت وعلى فمها ابتسامة حلوة تتخايل فى الظلمة خالية من دهشة المفاجأة :

ـ مساء الخير ·

آه ·· ألا من كلمة أخرى ؟ أين موضوعات الانشاء وكتب النصوص التى صدعت رأسى عشر سنوات بقصائد الغزل ورسائل المحبين ؟ ·· أين ··

ونظرت الى المعدية وكانت قد استقرت على الشاطىء الآخر وفى انتظار الركاب لتعود بهم ·

وقلت فى نفسى : يا لى من أحمق !! هل يتسع الوقت لمحاسبة النفس وتوبيخها ؟! العمل ·· العمل السريع والا ضاعت الفرصة ·· أى كلام ·· المهم أن أحتفظ فى حضرة النساء بفكى مفتوحين ·· فاتحدث معهن وأثنى عليهن وأوافق على ما يقلن ·· هكذا قرأت فى مجلة ·· أما الصامت فانه فى نظر أية امرأة لا يزيد عن حمار ولن أكون حمارا ·

ـ ستتأخر المعدية !

قالت وهى ترقب الشاطىء الآخر :

ـ انها لا تعود فارغة ولم يأت ركاب بعد · والعامل لا يرانا ·· فهو لا يتعجل العودة ·

وأعجبتنى (لايرانا) هذه ، وكأنها تتحدث (عنا) ونحن فى حجرة خاصة · ومرة أخرى ساد صمت ثقيل ·

ـ الجو ردىء جدا ··

ـ آ ·· جــــدا !!

مرة أخرى حاول · كن أكثر شجاعة ·

ـ ولكننا نتحمل المر لان هناك ما هو أمر منه · أما البرد واما الوحدة !!

وومضت عيناها بنظرات سريعة ، وقالت وعلى وجهها علائم ألم تحاول أن تنتصر عليه بنبرات صوتها :

ـ كأنما كتب علينا أن نهرب دائما ·· من البرد أو الوحدة ·· فاذا لم نجد ما نهرب منه ولا مفر من مواجهة أنفسنا ·· هربنا منها أيضا وأخذنا نحلم ·

قلت ـ وقد سرنى استطرادها وان كنت لم أفهم بالضبط ما تعنيه :

ـ الاحلام لذيذة ·

قالت وهى تنظر الى :

ـ ولكن الذين يعيشون فى أحلامهم ـ فى الواقع ـ يقبضون على الريح !!

سكتت لحظة قصيرة داعبت فيها حلية مدلاة من عنقها ، وفتحت حقيبة يدها ثم أغلقتها ، وهمهمت قليلا بنبرات غير مبينة ، ثم قالت بصوت ملء بالثقة :

ـ يعجبنى الواقعيون الصرحاء الذين يعرفون ما يريدون ويتجهون اليه فى شجاعة وبلا التواء · ولكن لما كان الناس جميعا لا يتحلون بهذه الصفات فقد استحال على من يتحلى بها أن يمارسها فى حياته · وقررت أن أكون شجاعا فاتجه الى هدفى بغير التواء · وماذا أخشى

وقد اكتشفت فجأة أنني (ولد ماكر وخبيث) استطاع أن يجذب انتباهها من جلسة واحدة في المعدية وأن يحادثها في أول وقفة منفردا بها ، وأيضا يحادثها عن الاحلام والوحدة والشجاعة والواقعية .. ما هذا ؟ انني عظيم .. رائع .. موهوب .. يجب أن أستمر :

ـ في الواقع أن الذي قال الوحدة عبادة لم يكن يدري عن النفس الانسانية شيئا .

قالت : هذا صحيح .. ان الوحيد لا يمكن أن يكون سعيدا !! الانسان أنيس واسمه يدل على ذلك . فاصل وضعه في الحياة أن يكون مع غيره وأن يانس الى غيره فاذا كان وحيدا لم يكن سعيدا .. والاشقياء ناقمون .. أكثر منهم شاكرون .

قلت : انني وحيد على نحو جديد !!

وأحسست أن كلامي يحتاج الى ايضاح أكثر فاستطردت :

ـ انني أسكن مع زملاء بجسمي فقط . ولكن روحي بعيدة عنهم . وأتوق الى تبديد وحدتي . ولكنني أنتظر حلا عند الذي يحل مشاكل الناس .

قالت : لا .. لا تنتظر والا فانك ستظل تنتظر العمر كله !! اخلق لنفسك حلا .. انني ـ مثلا ـ وحيدة !! لكن هل أستسلم للوحدة طويلا ؟! مطلقا لا .. انني أنتظر فقط حتى تبرأ جراح ، ولكني رغم الاختلاف بين طبيعتي وطبيعتك يجب أن أبحث عن حل .

ومرة أخرى بعد أن قررت أن أكون شجاعا قررت أن أبحث عن حل .. سريع .. الآن .. مع هذه .. ما المانع وكلانا وحيد ؟!

واقتربت المعدية من الشاطىء وقدمت لها يدي لتعتمد عليها بحجة ابتلال الشاطىء بماء المطر . ولم ترفض يدي فشجعني ذلك على أن أقدم لها يدي الاخرى .. حتى بدت بين يدي وكأنها توشك أن تلقي بنفسها بين أحضاني .

لم يكن في المعدية سوانا ، وكان الشاطىء الآخر خاليا ، وكررنا في النزول ما فعلناه سابقا . وسرت معها في الشارع والمشي في الظلام يسمح لكتفي أن تلامس كتفها . وعندما بدأ الشارع الذي

نفترق عنده قلت

ـ أن بيتي هنا . ولكنني اريد توصيلك في هذا الظلام الموحش .

فهل تجدين ما يمنع ؟ .

قالت : بالعكس .. أنى أشكرك .

وأمسكت بيدها وسرنا .. وكان الرذاذ بدأ يتساقط .. فارتجف كيانها ولم أجد كلاما وعيناى تحاولان اختراق الظلام . وأذناى تلتقطان صوت الرذاذ على أوسع مدى فشردت خواطرى . ولعلها كانت تعانى حالة متشابهة . فاكتفت بالتعلق بذراعى صامتة .. فأخذت أراجع موقفى منها وحديثى معها . فاستخلصت من كل ذلك انها وحيدة لسبب ما . وأنها لاتنوى أن تظل وحيدة مدة طويلة .وأنها تشجعنى على الاقدام . وأنها كانت فى الخارج ـ رغم رداءة الجو ـ لسبب غير معروف !!

وتخيلت نفسى ضحية حماقة امرأة .. أو نزة فاجرة . من يدرى؟ لعلها تريد أن تستغلنى فى شىء ما . أو توقعنى فى هوة لا يدرى الا الشيطان أين قرارها . اننى لا أعرف عنها شيئا ويجب ألا تكون أول معرفتى بها فى الظلام .

ولاننى لا أعرف طريق بيتها فقد تركت لها قيادى . وما أفقت من تأملاتى الا ونحن نجتاز باب بيت كبير . قلت وقد تنبهت فجأة كأنما عثرت أفكارى بعتبته :

ـ ها أنت قد وصلت .. وأشكرك على هذه الفرصة التى أتحتها لى لمعرفتك وتصبحين على خير .

قالت وقد فوجئت : ألن تصعد معى ؟

ـ لا ..

ـ الطريق طويل والليل أطول منه وأنت متعب .. على الاقل نتعارف وتشرب الشاى . !

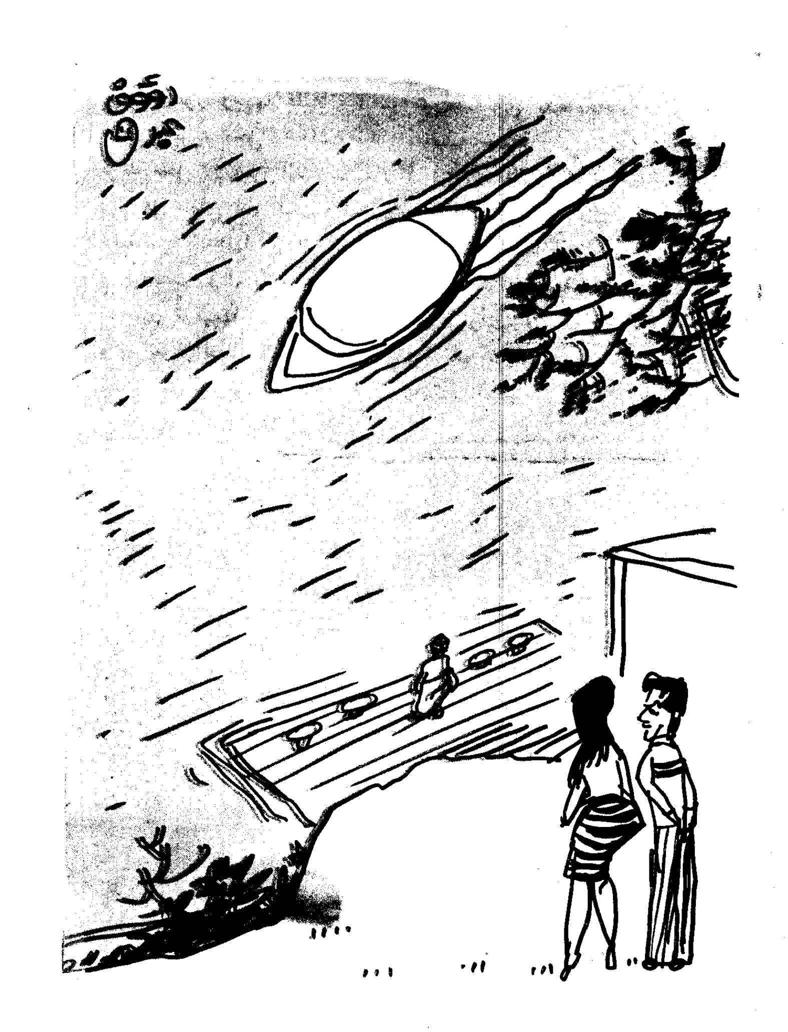
قلت وقد تجسمت مخاوفى وصرت أكثر ايمانا بها : متشكر .. ليس معى مفتاح . وأخشى أن ينام زملائى .. فى فرصة أخرى .. وتصبحين على خير .



لم تجد مفرا من التسليم بانصرافى وكنت للهفتى لا أكاد أنتظر جوابها ، فجذبت أصابعى من راحتها وأنا أكاد أعدو فى الظلام ..

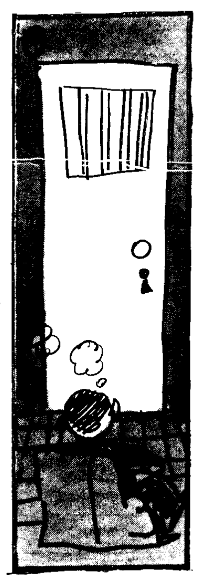
وعندما أحسست بالدفء فى فراشى انقسمت على نفسى طول الليل ، فمرة أؤيد موقفى ومرة أهاجم نفسى وأرانى كنت أقل شجاعة مما يجب ، وأن هذه المرأة لن تغفر لى هذا التراجع ما دامت أفسحت الطريق أمامى مرة .

وفى الصباح تأنقت أكثر من اللازم ، وعندما نزلت الى المعدية كانت هى هناك ، وعندما قلت : صباح الخير ، التفتت الى الناحية الاخرى ولم ترد ، على حين رد تحيتى سائر الجالسين . ولكنى لم آبه كثيرا .. فأنا متريث وهادىء ومازلت صغيرا .. والايام أمامى كثيرة .. ولا مانع من انتظار ظروف أكثر ملاءمة .. تأتى بها الايام.



● بعض مأساة الانسان ان يكون الباب مفتوحا ولا يستطيع عبوره !! ●

الباب مفتوح!



القيت بالزهر للمرة الاخير وأنا أكاد اقف . فأرتطم بحافة الطاولة مترددا كأنه يزغرد . ثم توقف عند الشيش بيش ، فعرفت انى ربحت الدور ، وتهلل وجهى بفرحة امتزجت بأحساس الملل المتوثب الى الرغبة فى الانصراف . لقد طال اللعب ، والليلة ليلة جمعة ، تحلو فيها العودة الى البيت مبكرا وتنفيذ البرامج الشخصية للسهر . وانصرفت برغم صيحات الاحتجاج من اصدقائى التى ظلت تلاحقنى حتى باب القهوة . وما كادت زوجتى تفتح لى الباب وتغلقه من خلفى حتى قالت : لقد اعددت لك مفاجأة رائعة !!

قلت : وماذا تطلبين ثمنا لها ؟

قالت ممتعضة : وهذا من غروركم معشر الرجال . تتخيلون انفسكم آلهة نتملقها بتقديم القرابين ؟!

قلت : طيب .. فلماذا تقدم القرابين اذن ؟

قالت وقد ضايقها استطرادى الذى ضيع عليها جمال المفاجأة : هذا سؤال لا يجاب عليه الآن · ثم قالت وعلى وجهها ابتســــامة حلوة : ولكن أسألني عن نوع قرباني !!

قلت ضاحكا : ما نوع قربانك يا معبودتي العابدة ؟؟

قالت وفي عينيها نظرة حب ضارعة : تذكرتا سينما !!

ولما لم تجـــد الاثر الذى كانت تريده على وجهى اردفت : المهم الفيلم ·· هو المفاجأة الحقيقية ·

قلت فى حماس مصطنع لارضيها : ما هو ؟

قالت وكأنها تصرح بخبر الموسم : ذهب مع الريح !!

قلت وانا أحاول أن اضحك : رائع ·· رائع جدا ·· فقط كان يحسن أن تخبريني لعلي مرتبط بموعد ، أو ليس لى رغبة فى الخروج

قالت متغاضبة فى رقة تلين الصخر · وقلبى ليس صخـــرا : هكذا انت دائما تحاول ·

فقاطعتها : لن أحاول شيئا يا حبيبتى ·· هيا نلبس ثيـــــاب الخروج فقد أزف وقت السينما · وانى والله مسرور بهذه المفاجأة ·

وفى الواقع لم أكن متحمسا للخروج فى ذلك المساء البـــــارد الممطر أو يكاد · كنت قد عزمت على قضائه فى القراءة حتى تبدأ أم كلثوم فى الغناء فأتمدد فى السرير الى جوار الراديو ، واظـــل ارسل الاهات مع « ثومة » حتى تكف أو أنام ·· واخيرا ·· ولا اكتمك ذلك وان كان من الاسرار الخاصـــة ، ليست السينما هى المفاجأة ، ولكن المفاجأة الحقيقية ستصرح بهـــا زوجتى فى فترة الاستراحة أو حين العودة أو بعدها بقليل جدا !!

نهايته ·· ارتديت ثيابى وانا احثها ــ زوجتى لاثيابى ــ على السرعة حتى لا تفوتنا بداية الفيلم ·

واخيرا خرجت من حجرتها وعيناها تجولان فى حقيبـــة يدها المفتوحة فقلت لها : تأكدى يا ليلى من وجود التذاكر ·· والمفتاح !!

فقالت دهشة وقد صرنا الى جوار الباب : المفتاح ؟! وما شأنى

أنا بالمفتاح ؟ لقد أضعت مفتاحي منذ شهر ومن يومها لم تسمح لى بشرف رؤية مفتاحك !؟

ولم أدهش . فقد أفتقدته فعلا . وبحثت عنه بعيني وانا البس ثيابي . ولم أحس . تجاهلته ظنا أن تجاهلي لضياعه سيجعل ليلى تعثر عليه بسهولة . ولعله معها . ولكني أيضا اصبت بخيبة أمل لما لم أجده معها وغم تأكدي من ذلك .

فقلت مكابرا : هل قلت أنه معك !؟ انني أقول تأكدي من ذلك .. أعني ساعديني في البحث عنه .

والقت بحقيبة يدها على المائدة في وسط الصالة . وعدنا في حماسة نبحث عن المفتاح . ولم نترك شيئا بدون بحث حتى المطبخ وحافة الشرفة وفوق عداد النور . وقلبنا كل شئ حتى الاحذية وكلما أشتد البحث واصر المفتاح على عدم الظهور أشــــتد غيظي واصراري على الخروج .وتعلقي برؤية هذا الفيلم الرائع في تلك الامسية المنعشة .

وبعد ربع ساعة صار البيت اكواما مثل سلسلة الجبال . قلت بمسكنة : يبدو أننا لن نعثر عليه !!

قالت ليلى تعزيني وتهون الامر علي : ليس ذنبك .. انه صغير جدا ، مثل فلقة الموس .. ايه ده ؟! فقلت ضاحــــكا من الغيظ. وكيف تريدينه اذن ؟ في حجم المقشة مثل مفتاح جدتك ؟

فقالت متغاضبة : أرجوك .. ليس هذا وقت المزاح ..

قلت وانا لا ازال اضحك من الغيظ : انني لا امزح .. والله .. لقد كان لجدتي مثل ذلك المفتاح . ولكن العرسة كانت ترج الباب بنظام معين فينفتح وتفترس الكتاكيت . ولذلك كنا نحترس باحكام (العصفرة) ووضع اربعة قوالب طوب اذا خشينا هجمة الذئب .

وســكت قليــلا ثم اردفت : هل نفعــل مثل ذلك ونذهب الى السينما ؟

كنت أعرف أن مثل هذا الحديث الصريح الســاخر عن الماضي يغيظ ليلى . كنت اتجنبه ما امكن . ولكني كنت أكثر ميلا لاغاظتها

انتقاما لفشل السهرة التى اصبحت اكثر تعلقا بها .. مع انها ليست صاحبة المفتاح الضائع . ولكنها قاومت الغضب وقالت بهدوء : بس صلى على النبى .. وافتكر اين رأيته آخر مرة ؟

وقد اعجبتنى هذه الطريقة وان كانت تحتاج للتفكير الهادىء الذى لا استطيعه والوقت يجرى والحفل يوشك أن يبدأ . فقلت : طيب .. يا سيدتى .. دخلت بالليل .. أمس .. هه ..

وكنت انت نائمة .. فوضعته فى الباب ، وأدرته فانفتح .. ودخلت .. وخلعت ثيابى ، وكانت البدلة البنى ، بهدوء .. حتى لا تعرفى متى عدت !! ثم علقتها فى الدولاب .. بهدوء ايضا .. واخيرا تذكرت أن المفتاح فى الباب ، فذهبت وأغلقته وعدت بالمفتاح ،ومددت يدى في الدولاب فوضعته فى..فقاطعتنى قائلة فى سرور ودهشة وقد صار السر فى يدها : فى جيب جاكتة أخرى غير التى كانت عليك !!

فقلت ساخرا ولم تتخل عنى رغبتى فى اغاظتها : يا سلام على النباهة .. لقد فعلت .. بحثت فى كل الجاكتات المعلقة فى الدولاب .. بنى وغير بنى !!

ولكنها لم تأبه لكلامى واعادت البحث . وخرجت بنتيجة بدت لى محتملة ، بل ليس هناك غيرها .. ليس فى جيب الجاكتة البنى مفاتيح ، وما دمت انا مصرا على أنى وضعته فى جيب جاكتة ، فلابد ان يكون غير البنى . وليس فى الجاكتات الاخرى مفاتيح ، وهناك واحدة عند الكواء ، فلابد ان يكون المفتاح فيها ، ومن المحال أن يفتح الكواء دكانه فى هذه الساعة وهذا الجو .

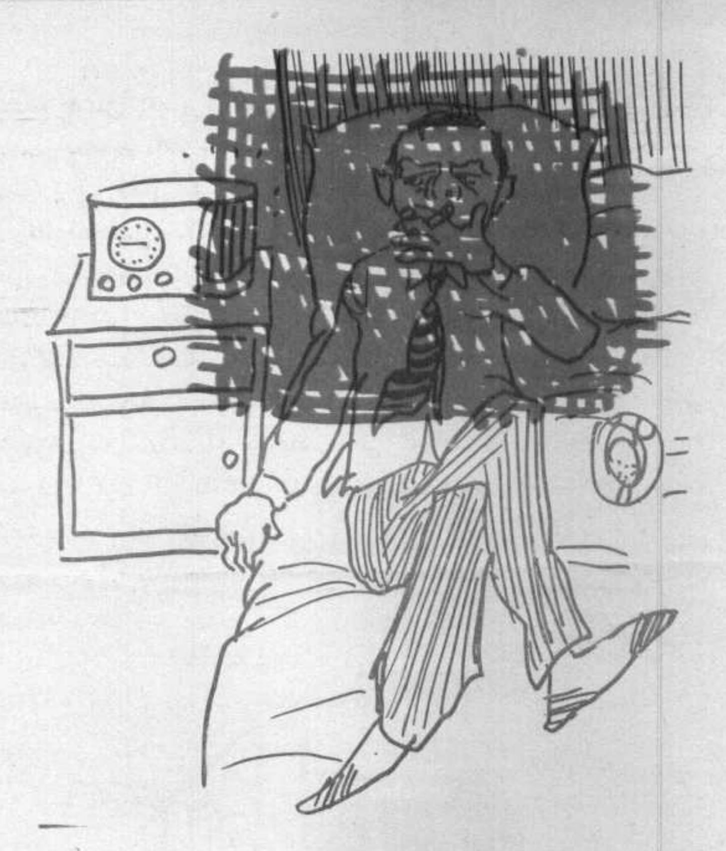
وبعد أن تأكد لنا انه لا امل فى الحصول على المفتاح ، وانه هو الاخر ذهب مع الريح ، قلت مقترحا : عندى فكرة !!

قالت فرحة وقد ظنتها تحل مشكلة المفتاح : هه ..

قلت : ليس للمفتاح ؟

قالت فى غيظ : برضه هه .

قلت : التذاكر .. التذاكر ياعزيزتى تنتحر بدون جدوى .



اصعدى الى نجوى هانم فى الدور الخامس فاجعلى المفاجأة لهـــا ولزوجها . وسيفرحان بهذه التحية ولاتخبريهما بما حـــدث لنا . وسيردان لنا المفاجأة اللطيفة فى يوم آخر ليس فيه مفتاح ضائع .. هه .. ما رأيك ؟

قالت مسرورة : هايل ... بسرعة .

وخرجت فعرا ، وجلست انا حزينا احاول أن اسرى عن نفسى بأن هذا لم يكن برنامجى ، بل ضد رغبتى ، وان (تومة) توشك ان تشدو ، وليلى ستنزل بعد دقائق .. ولكن احساسى بأنى مرغم على عدم الخروج من باب مفتوح عكر مزاجى . لو ان الباب مغلق ..

فاما ان احطمه ، أو أيأس واليأس راحة .. اما والباب مفتوح !!
هذا شيء لا يحتمل .. آدم والتفاحة فى متناول يده .. محرمة !!؟
وبعد دقائق عادت ليلى ، وهى تحكى فى سرور كيف انها (سبكت الدور) فاقنعتهما بالمفاجأة وتلقت شكرهما العميق .

وذهبت الى حجرتى لاخلع ثيـــابى . وجلست على حافة السرير متهالكا . وقد بدأت أم كلثوم تنادى « اهل الهوى يا ليـــل !! » وخلعت الجاكتة وطوحت بها فى غيظ بعيدا نحو الوسادة فأستلقت مائلة على الحافة كأنها قتيل . وجذبت البنطلون . من ســـــاقى جذبا عنيفا . فسمعت رنة المفتاح على الحائط . وقد نط ــ بقدرة قادر ــ من ثنية رجل البنطلون !! وقالت أم كلثـــــوم « فاتوا مضاجعهم » !!

فقلت مغتاظا : نعم . ذهبوا الى السينما وتركونى احرس بابا مفتوحا !!



باطل الأباطيل

١



للمرة العشرين كتبت التلميذات فى كراساتهن « قابلت الطفل وهو باكى » وللمرة العشرين ايضا وضعت نوال خطا أحمــــر تحت كلمة (باكى) وشطبت الياء ووضعت كسرتين تحت الكاف! وأطلقت نفسا حبيسا مجهدا . يمتزج فيه الضيق باللغة . التى تحذف وتضيف دون منطق معقول . بالضيق من الطالبات اللاتى تكرر منهن هذا الخطأ بعينه . وما تظنه الا سيتكرر فيما بقى من الـكراسات .. والتل لم يختل بعد . على الرغم من انها اخذت منه حتى تصلبت أصابعها على القلم . ورقصت الكلمات أمام عينيها . وعضت شفتها بشىء من الندم وهى تنحو على نفسها باللوم . فلو انها اختارت موضوعا آخر . لما تحتمأن تذكر التلميذات هذه الكلمة اللعينة . ويتكرر منهن الخطأ فيها !! حقا .. يجب أن تتمتع المدرسة بنوع من الحدس قوى . فتتخيل ما ستكتب تلميذاتها فى الموضوع قبل ان تعلنه ويجب أن تضع فى أعتبارها ذكاء الذكيات

وعباء الغبيات ، وسخافة بعض التراكيب اللغوية التى من المحسن أن تعترض طريق التلميذات أثناء التفكير » ولكن ·· هـــل كان امامى غير هذا الموضوع ؟ حضرة المفتش ·· العجوز الطويل الاعجف ·· مثل سيما فور غمرة . مصمم على أن تكون موضـــوعات التعبير مستقاة ·· هكذا « مستقاة » من البيئة · وبعد غد ·· العيـــد . والموضوع . قصة يتيم يوم العيد ؟ مبســـوط ياحضرة المفتش ؟؟ موضوع فسيح يرسح فيه الخيال وتنفس فيه المراهقات عن احزانهن ·· بيئة أيه يا حضرة الزناتى خليفة ؟! أين هى البيئة ؟! اننا هنا فى مساكن المدرسات لانرى الا القمر فى السماء .. وعم أبوجاسم ، حارس البناية على الارض ، ويمر اليوم بعد اليوم ، والاسبوع بعد الاسبوع ، ولا تمتد اعيننا ولا آذاننا الى أكثر مما امتدت اليه حين هبطنا من الطائرة » .

وعادت نوال تنظـــر الى تل الكراســـات أمامها . وهى تعيسة نظراتها . وتقسمه على أيام عطلة العيد ، وتحلم بأن تستقبل أيام المدرسة ، بعد أنتهاء العطلة . وليس عندها شغل بايت !! وحاولت أن تجعل نصيب يوم العيد من الكراسات أقل من أنصبــــة الايام الاخرى ، حتى تشعر بشىء من الفراغ ·· بأن هذا اليوم غير كل الايام ·· ولكن : هل هو هنا غير كل الايام ؟! وحنو قلبها لايامها السابقة فى وطنها ، قد مر عليها خمسة أشهر كأنها دهر طويل . أنها لاتكاد تصدق أنها سترى شارعهم مرة اخرى ·· كم تخشى عليه أن يضيع من ذاكرتها . لذلك تفكر فيه كل يوم . وتذكره عنـــد الغروب خاصة ، وقد اكتسحتـــه الشمس بأشعتها المصفــــاة . وانتشر فيه الصبيان والاطفال يلغطون ويمرحون كأنهم سرب من العصافير ·· هؤلاء يتقاذفون الكرة الشراب ، التى أصابتها مرارا فى كتفها عند عودتها من الكلية فى ذلك الوقت ، وأولئك يخططون ارض الشارع بالاحجار ويتقاذفون بأرجلهم الزاحفـــة كسرة من البلاط !! لقد كان هذا المنظر النابض يختفى يوم العيد لم تـــكن تدرى هل يذهب سرب العصافير الى اماكن أخرى يلهو بها يوم

العيد ، أم انها هى ٠٠ نوال ، التى كانت تشغل عن التســـل بهم !؟ لكنها تذكر جيدا يوم آخر عيد قضتـــه فى الوطن ، تذكره لحظة لحظة ٠

لقد جاء حسنى ابن خالتها ليهنئهم بالعيد ،فى الظاهر ، ليجلس بقربها ساعات فىواقع الامر ٠ جاء تسبقه ضجته المرحه ،وهو يهنىء أخواتها الصغيرات متمنيا لهن أمنيات أحمر وجهها هى عند سماعها ، حتى اذا وضعت يديها بين يديه ، سكنت ضجته ، وانعقد لسانه ، كأنما انقطع التيار الكهربى فجأة عن مذياع فى مقهى٠ لكن ابتسامته الواسعة ظلت تكسو وجهه ، ولم يقل لها اكثر من الكلمة التقليدية المحفوظة « كل سنة وانت طيبة يا نوال » ٠

وحدقت نوال فى أذرع المروحة المبسوطة فى سماء الغــــرفة ، والنسمة المتسللة من النافذة الزجاجية المفتوحة تحـــركها فى بطء رتيب ، وجاء صوت « أبو جاسم » عند باب المساكن ينادى كلبه ، ويعبث بأصابعه فىمفتاح مذياعه الترانزستور ، فتختلط الاصوات والانغام ٠ ثم أطبق السكون مرة أخرى ، والتقت عينـــاها بالظلام عبر النافذة ، فعاد صوت حسنى ، الهادىء الخجول فى تلكاللحظة، يتردد صداه « كل سنة وانت طيبة يا نوال » ٠ وتمثلت لها امهـــا وهى تدخل عليها عائدة من المطبخ تفوح من ثيابها رائحة الشواء ، وقد تهللت أسارير حسنى واقبلت عليه ، فترك يد نوال ، والتفت الى خالته مهنئا فبادرته وهى تقبله فى خده : خـــــذ بنت خالتك ، لتهنىء أختى بالعيد ٠

كان هذا أيذانا لنوال بان تخرج مع حسنى منفردين لاول مرة ، ولقد خرج معها ، وسارا فى الشارع يلفهمـــا الصمت ٠٠ كانت الشمس المصفاه تكتسحه بأشعتها ، ولم يكن سرب العصافيرموجودا ولقد تمنت ان يوجدوا ، وان تصيبها الكرة فى جسمها ، حتى تجد هى ، أو يجد حسنى ما يقوله ، لكنها — بسرعة — استفـــادت من عدم وجودهم ، فقالت ، وصوتها لايطاوعها : ياسلام !! الشارع من غير أطفال هادىء ونظيف ، صالح لاداء مهمته ، هنا استرد حسنى

شيطنته . وقال بسرعة لايكاد يتبين معها مرمى كلامه : كأننا لن نضيف الى أطفال شارعنا عددا آخر !!؟ وفتحت نوال حقيبتهـــا ، واخرجت منديلا مسحت به طرف انفها ، وأهدابها ، ووضع حسنى يديه فى جيبى سترته ، وغرقا فى الصمت من جديد ، ولم ينقذهما منه الا صعودهما الى الاتوبيس ، وقد اتاح له ذلك ان يمس خصرها وهو يحميهـــا من ضغط الزحام ! البيئة ! البيئة هناك حيث الزحام يا حضرة سيمافور غمرة الرسمى . حيث يحس القلب خفق القلب ليس امامى هنا الا : وحيد أبويه كان يستحم على الشاطىء وكاد يغرق لولا أن أنقذه شاب قوى شكره الوالدان شكراً جماً .. صورى هذا الحادث بقلمك أو .. استمعت الى قصة من المذياع واعجبتك لخصيها بقلمك ، او على الاكثر : الام مدرسة اذا أعددتها !! أم يريد حضرة الزناتى خليفة ان أعطى التلميذات مواضيع من بيئة سكن المدرسات !؟ ان الامر على هذه الصورة يبدو أكثر معقولية ، فهى البيئة الوحيدة التى امتزج بها .. وادركها . ما اروع ذلك حقا : صورى بقلمك معركة كلامية بين سعاد مدرسة التربية الفنيـــة ، وفاطمة مدرسة الحساب سببها ضياع ملحق مجلة حواء !! تحدثى عن العقد النفسية التى تتمتع بها الاستاذة سلوى نتيجة لوجـود ثلاثة امتار من الجوبير الابيض فى حقيبة السفر ستصنعها فستان زفاف عقب عودتها .

وصمتت افكارها لحظة ، ثم عادت وقد سرت قشعريرة خفيفة فى جسمها « صورى قصة حب مع أيقاف التنفيذ » !! نعم .. هذا أجود أنه من حياة مدرسة المادة ذاتها ... كيف اتطفل على مدرسات المواد الاخرى !؟

وانصفق باب بعيد ، فى آخر الممر امام الغرف المتجـــاورة ، فكأنما انصف على صفحة من الافكـــار ، وقلب صـــفحة جديدة ، فتنبهت نوال للقلم الاخضر ما يزال فى يدها واحدى الكراسات بين يديها ، وعن يمينها تل أشبعته شطبا وتصويبا واشبعهـــا مللا وارهاقا ، وتل آخر ما تحسبه سينتهى الا وقد أجهز على ما فيها من



القدرة ٠٠ فعادت تطلق نفسا حبيسا وهي تزفر : لافائدة ٠٠ لامفر !!
وجرت عيناها على عنوان الموضوع فعرفت فيه خط احب تلميذاتها « غنيمة » ٠٠ اليمامة الصحراوية الوديعة ، فأحست بارتياح شديد وهي تذكر وجه « غنيمة » الاسمر المستطيل قليلا وعينيها السوداوين الواسعتين ، وشعرها الفاحم الذى جدلته فى ضفيرة واحـــدة ، ممتدة الى أردافها اللطيفة الحديثة التكوين ٠٠ كم تتمنى لنفسها مثل هذا الشعر ، ومثل هاتين العينين ٠ كم قرأت من الشعر العربى عن عيون المها ، لكنها كانت تعتبر هذا الشعر أيام الكلية ضمن المقرر ، يحفظ ثم ينسى ٠٠ وظلت تجهل عيون المهـا الى ان رأت غنيمة ، فالتمست العذر للشـــعراء ، وحاولت ان تذكر شيئا من شعرهم ٠ وعاد الى مخيلتها وجه تلميذتها ، وتصورتها غزالا صغيرا نافرا ، يتواثب من حولها ، وله هاتان العينان ٠ وذكرت اليـــوم

الاول الذى ارتفعت فيه غنيمة من تلميذة عادية ، الى صديقة أثيرة عندها . جاءتها فى غرفة المدرسات وكانت وحيدة وقالت لها : أننى أحب الانفراد بنفسى ، وابــكى ، واخشى من تأثير ذلك على المذاكرة ، وانا أحبك ، واحب أن تأخذى بيدى .

كانت أول كملة توجه اليها كانسانة ، وليس كمدرسة ، منذ وصلت هذه المدرسة ، فتطلعت الى وجه تلميذتها . فرأت عيــون المها ، ورقة الغزال ، فأمسكت بيدها فى رفق وتحبب وهى تقول : لا تساعدى نفسك على الوحدة ، اختلطى بأسرتك أكثر ، وذاكرى بصوت مرتفع .. أنا وقعت فى نفس المشكلة عندماكنت فى سنك ، كنت أبكى كل يوم وانا اتصيد أغنيات فريد الاطرش من اية اذاعة .

قالت المها : وأنا ..بس مع حليم !! قالت نوال : لافرق ..كلهم يبكون .. فى الاغانى .. لكنهم فى الواقع يملكون قلوبا من حديد .. لى ابن خالة .. خطبنى بعد ما تخرجت .. أنا جئت هنا من أجله .. من أجل تكوين بيت له مستوى .. هنا أشياء ليست عندنا .. أول أسبوع .. كل يوم رسالة .. وثانى اسبوع .. رسالتين .. وبعد أسبوعين .. رسالة ، ومر شهر الآن لا أعرف عنه شيئا .. وطبعا .. الشارع مزروع بالالغام !! قالت المها فزعة ، وقد زادت عيناها الجميلتان اتساعا : الغام !!؟ ـ نعم .. الغام آدمية .. والبعيد عن العين .. بعيد عن القلب !!

واكتشفت نوال ، أنها ثرثرت مع تلميذتها أكثر مما تسمح به ظروفها . فتوقفت فجأة ، وتنهدت دون أن ترضى التطلع الواضح على قسمات « غنيمة » لكنها منذ ذلك اليوم ، صارت صديقة لها .. انها لا تمارس حق الشكوى الا معها ، فلو أنها شكت حسنى الى زميلة من المدرسات لتحول الامر الى اشاعة ومذلة . لكن غنيمة .. بيئة ثانية ، بيئة مختلفة . وجذب نظرتها الشاردة شريط طويل من المصابيح الصفراء المضيئة ، يمتد مع الطريق الدائرى الذى ينتهى عند المطار .. ما كانأجمل النور الاصفر حين يكون تشكيلا بديعا مع النور الابيض ، ما كان أجمله حين رأته من شباك الطائرة وهى

تحوم فوق العاصمة ليلة قدمت الى هنا وكم كانت آمالها زاهية ، واحساسها بالمغامرة يجعل للحظات حياتها مذاقا حادا لذيذا ٠ لكنها الآن ، والعيد على الابواب ، تراجع ميزانية الايام الفائتة ، فتجد الخسائر فادحة ٠٠ فى الارواح ، كما تقول نشرات الاخبار عادة حين تنشب الحرب ! الذين هناك ينسون ، والذين هنا لايذكرون ٠ وعادت تتمتم : « لافائدة ٠٠ لامفر » ٠

ونقرت بكعب القلم الاحمر بضع مرات كأنها تدفع خواطرها نحو التأهب مرة أخرى للعمل ، وجرت نظرتها بين السطور ، وما لبثت أن شعرت بارتياح عميق وهى ترى غنيمة قد اجتازت لحظة الخطر بسلام ، فقد قابلت الطفل وهو باك !! ووضعت كسرتين تحت الكاف لتؤكد لصديقتها أنها تذكر القاعدة ، ولم تكتبها صحيحة بالمصادفة ، وأحست نوال بالزهو ، ووضعت تحت الكلمة علامة صح ، لتؤكد لتلميذتها أيضا أنها فطنت لذكائها ، وأنها قدرته ٠ ومضت تقرأ الموضوع ، وهى تتذوق كل لفظ فيه ، وتحاول أن تجد فيه ظلا للذكاء والرقة ، يرضى رأيها فى صاحبته ٠

وما كادت تنتهى من كراسة غنيمة حتى عاودها احساس الملل والضيق ، وهى تمد يدها الى الكراسة التى بعدها ، فألقت نظرة على ساعتها التائهة بين أكوام الكراسات ، فوجدت الوقت قد جاوز نصف الليل ، فتمطت وهى جالسة حتى أصفرت الغرفة فى عينيها ودارت ، ثم اصفرت واستقرت ، فقامت تتأهب للنوم ٠

وتمددت نوال فى سريرها ، لكنها قبل أن تطفىء النور ، سمعت صوتا يأتى نحو غرفتها من بعيد ، عرفت فيه صوت سلوى ، ولم تمض لحظات حتى سمعت طرقها على الباب ، فأوشكت أن تقول : ادخلى يا عقد نفسية ، لكنها كظمت غيظها ، ودخلت سلوى وفى يدها بطاقة مرسوم عليها باقة من الزهر ، هشت لها نوال ، واعتدلت فى سريرها وهى تمد يدها لتأخذها ، قائلة : ماما ٠٠ حبيبتى !! قالت سلوى بشىء من الجمود : سلامة عقلك ياماما أنت ٠٠ معايدة ماما وصلتك البارح !! فانطفأت الفرحة قليلا ، لكن نظرة نزقة

عبرت بعينيها لحظة .. تنبهت لها سلوى ، فعادت تقول ، وهى تبعد البطاقة عن يد نوال : كلا .. وليست من حسنى !!

فكبا نور وجهها قليلا ، وهنا مدت سلوى يدها بالبطاقة وهى تقول : بريد محلى !! قالت نوال بدهشة خفيفة وهى تفتح البطاقة: بريد محلى ؟! ومن الذى سيذكرنا هنا ؟! قالت سلوى بسخرية : ريم على القاع بين البان والعلم .. التلميذة البايخة التى أفسدتها بالتدليل .. انها معى من الظهر ، وقد فكرت مرارا فى تمزيقها !!

فخطفت نوال البطاقة من زميلتها وفتحتها بسرعة ولهفة وعيناها تلتقطان توقيعها تحت الاسطر القليلة ، وانصرفت سلوى ، وعادت نوال تقرأ البطاقة ، وهى تحس على نحو غامض بمعنى من معانى العيد يتسرب الى نفسها : « أستاذتى العزيزة .. من تلميذتك المخلصة ، تقبلى أجمل التهانى بالعيد ، والسنة القادمة تكونى قد حققت كل أحـــلامك . غنيمة » . واعتدلت نوال قليلا ، ومدت ذراعها ، فجذبت القلم الاحمر من فوق المكتب ، ووضعت خطا تحت (تكونى) وكتبت فوقها (تكونين) ، ثم القت بنفسها فى السرير تبحث عن النوم !!



الميزان



عندما تخطى الشيخ الطريق الملتوى ، واصبح يواجه البيت ، الذى يسكن غرفة منه ، لمح نافذة غرفته ، ما يزال النور يتدفق منها على أرض الشارع الساكن، فى آخر الليل . وارتجف قلب الشيخ باشفاق وأمل وهو يتحامل على ساقه العرجاء المهيضة ، يريد أن يكتم صوتها وهى تزحف على أرض الشارع الصلبة ، وقال فى نفسه : « ما يزال هشام يذاكر ، والفجر على الابواب ، لم أعد أحتمل برد آخر الليل ، ومع هذا .. لا مفر من أن أخلى له الغرفة ليتمكن من المذاكرة فى هدوء » .

وصعد الدرج ، فى بطء متثاقل ، محاولا ألا تحدث الساق المهيضة صوتا يمزق السكون ، لكنه فى ذات الوقت كان يحاول أن يشعر ابنه بمقدمه حتى لا يباغته فيزعجه عن كتابه ..

وازاح الشيخ باب الغرفة بهدوء شـديد ، وهو يتخيل ولده الوحيد ـ كدأبة ـ واقفا وسط الغرفة والكتاب فى يده ، لكنه ـ هذه

المرة ـ وجده جالسا الى المنضدة الصغيرة ، ذات الارجل الثلاث ، والقلم في يده . والكتاب مفتوح امامه وقد حنى رأسه ، وأسند صفحة وجهه الى راحة يده الاخرى ، وراح في نوم عميق .

« ياولدى » !! قالها الشيخ من قلبه ومن لسانه ،لاذعة محروقة حزينة .. وتقدم في خطوه الوئيد ، حتى وضع يده على كاهل ولده في رفق ، فتنبه الفتى ، كأنما نام من لحظات قصار ، وفتح عينيه المحمرتين بالنوم ، وقام كأنه مسحور ، وألقى على أبيه نظرة خالية من التعبير ، ثم ألقى بنفسه في سريره ، واستسلم للنوم من جديد كأنما ... من تحت الوسادة !! وأخرج الشيخ منديله فمسح قنوات العرق عن جبين هشام ، وعنقه ، وروح الهواء حتى داعب شعره البني الجميل ، الملتصق بجبينه العريض ، بفعل العرق ، وابتسم الشيخ لولده النائم ، في حزن ، وخواطره تذهب به الى بعيد .. « ايه يا لطفي .. لقد غادرت يافا الجميلة ، وهذا الفتى الذي يطرق أبواب الشباب ، طفل رضيع .. ما أسرع الايام .. وما أقساها عليه .. وعليك » .

وتقلص قلبه أمام الذكرى الحزينة ، وقام يتشاغل بشيء آخر .. لا جدوى من الحزن .. لا قيمة للحزن .. انه أشبه بالاحتراق الداخلي ، الذي ... صاحبه فيتقوض دون أن يدرى به أحد .. نعم .. يتقوض دون أن يدرى به أحد !! كلا .. لقد استمع من أحد الشعراء في المذياع يوما : أن الحزن مثل الطاقة الذرية .. انه في نفس الانسان ، مثل الطاقة الذرية في هذا الكون .. أما أن يدمر فيخلف خرابا لا آمل لعودة الحيـــــاة بعده ، وأما أن يخلق فيصنع المعجزة الباهرة !!

وقام الشيخ عن حافة السرير .. متجها الى المنضدة حيث كان يذاكر ابنه ، وهو يقول في نفسه : « لكنه كلام شعراء .. الحزن الخلاق !! الحزن المدمر .. لا فرق .. انه الحزن على أية حال .. الذي يلتهم أيامي .. وينتظر هذا الفتى وأمثاله الذين نربيهم لامل تائه في اعصار !! »

وعاد ينظم كتب ولده المبعثرة فوق المنضدة ، ويصف الاقلام والادوات ٠٠ وهنا التقطت عينه ورقة ، ثبتها هشام فى حافة النافذة بدبوس صغير ، وعلى الورقة تواريخ الايام الباقية على الامتحان وكلما مضى يوم شطبه الفتى بقلمه ، ليظل على ذكر دائم بيوم الامتحان ، فلا تفتر همته ٠٠

وسرحت عينه بين تواريخ الايام ٠٠ الورقة كأنما عبثت بها يد صبى صغير ٠٠ يوم مشطوب بالقلم الاحمر ، ويوم مشطوب بالقلم الاسود ، بلا عناية ، وآخر يوم لم يشطب بعد ٠٠ لقد نام هشام قبل أن يطعن هذا اليوم بقلمه ، فيحسب بين الايام الماضية ، ويدفع به الى يوم الامتحان ٠٠

ومد يده الى القلم ، يبغى شطب هذا اليوم ، لكن يده ما لبثت أن تصلبت ، وسقط منها القلم ، وزحف الشيخ بجسمه الى المقعد حيث كان يجلس ولده ، وسرحت عيناه فى الظلام المترامى وراء النافذة المضيئة ٠٠ أنه الخامس عشر من آيار اذن !! يوم قيل أن امتنا دب فى عضو منها شلل مقيت ، جعله موجودا كمفقود !! وتطلع الى ولده فى اشفاق شديد ، وهو يتساءل بصوت هامس حزين : أحقا أنت يا هشام ٠٠ موجود كمفقود !! وارتجف صوته بالانفعال ، وقد تعالى همسه فأصبح يشى بغليان قلبه كلا : لست مفقودا ٠٠ أنت حقيقة ٠٠ ستعود ٠٠ لتثأر أنت أملى فى الثأر يا هشام ٠٠ أما ترى ٠٠ ساق أبيك المهيضة ٠٠ الرصاصة الغادرة نفذت من اعلى الفخذ ٠٠ رصاصة اسماعيل أبى روبين ٠٠ ألا تعرفه ؟! ستعرف يوما ٠٠ هذه ذكريات لاتموت ٠٠ وقام الشيخ يجر جسده جرا ٠ وأطفأ النور ، واستلقى الى جانب ولده ، وحاول أن ينام ، لكن ٠٠ دون جدوى ٠٠ ذكريات قوية ، قفزت حواجز الزمان والمكان ، وتمثلت له كأنما حدثت بالامس ٠

الطرف الجنوبى من يافا ، حيث يبدأ الطريق الممتد الى بير السبع وبيوت الفلاحين متلاصقة تستدفىء تحت شمس آذار ، الممزوجة بنسمة طرية ، اغتسلت فى البحر ، وتعطرت فى حدائق البرتقال ،

وأقبلت تعانق الاجساد والارواح ٠٠ فى تلك الساعة من الصباح ، ارتفع صراخ مذعور : قتل صالح !! وانتفض لطفى حين سمع اسم أخيه على الالسنة ، وقام ، فوجد موكبا مولولا من النساء ، يتقدمه بعض رجال يحملون صالحا بين أيديهم ، والدم يسح من جبينه ٠ وتمالك لطفى أمام الرجال وهو يرى أخاه صريعا ، وسأل بصوت محتبس : من الذى ضربه ؟ قال الرجال فى نفس واحد : يهودى من أتباع أبى روبين !! ضربه بالفأس من خلف على غرة ،حين اختبأ بين أشجار البرتقال ٠ وتنحى لطفى عن الباب ، ليدخلوا أخاه، ويستدعوا الطبيب ان كان ثمة أمل فى انقاذه ٠٠ وانفرد بنفسه وراح يبحث الامر ٠٠ اسماعيل أبو روبين ، يهودى ٠٠ أزرق العينين ٠٠ أشقر الشعر ، ضخم الهامة ، فى وجهه درنات حمراء تكسبه غلظا وجفوة ، لكنه دائما ، يبدو رقيقا مسالما ، مجاملا ٠٠ فما بال رجاله يعتدون منذ اليوم ٠٠ ويتم الاعتداء على صالح بالذات ، وهو الفتى الشجاع القوى !!

وقبل أن ينتهى لطفى من خواطره ، أو يعرف سر الحادث ، كان أهل الضاحية ، قد تجمعوا ومعهم أسلحتهم ، وكلهم اصرار أن يسيروا الى مزرعة أبى روبين فيقضوا عليه وعلى رجاله « هؤلاء الغرباء الى متى نسالمهم ٠٠ وسلامهم خداع !! لقد بدأوا بصالح وهذا أمر له ما بعده ٠٠ لن نخدع بعد اليوم يا اسماعيل أبو روبين » ٠ وقبل أن يجيبهم لطفى كان الطبيب قد توسط جمعهم وقال أن الضربة لم تصب من صالح مقتلا ، فصالح قوى ، وليس من السهل القضاء عليه فى ضربة واحدة ، وقد جبن اليهودى من معاودة الضربة ، فهرب بعد الضربة الاولى !!

وهنا قال لطفى : ان الله قد سلم أخى ، ونحن قوم لا نعرف الغدر وقد اعتدوا على أخى ، محاولين قتله ، وسأمشى الى أبى روبين منذ الغد ، وأطالبه بتسليم الجانى ، والا تركتكم وما تشاؤون ٠٠ وارتفعت أصوات المعارضة ، تطالب لطفى بعدم الاقتصار على طلب



القاتل . وأنه لابد من القضاء على أتباع اسماعيل جميعا ، لانهم صاروا مصادر خطر ، وتكاثروا من حوله ..

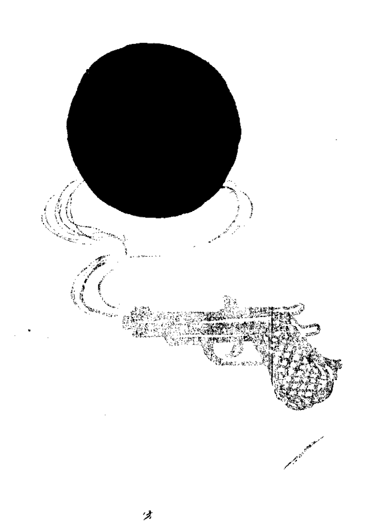
ونظر لطفى الى الرجال من حوله ، وقد ومضت الاسلحة فى أيديهم ، وبريق الغيظ فى أعينهم واحتلت خياله صورة هؤلاء الرجال، وقد زحفوا على مزرعة أبى روبين التى تخفى عددا من الرجال لايدرى قدره ، وطالبوا أبا روبين بتسليم الجانى .. وتخيل أبا روبين ، وقد خلع عن نفسه فجاة ثياب المودة والتذلل،وأعلن رفض تسليم الجانى ، واشتبك الرجال فى معركة دموية ، لا تدرى نتيجتها .. وهنا قال لطفى فى نفسه « كلا .. لا أكون باب الشر .. فلنتمهل .. لعلنا نستعد أكثر !! » .

وقبل أن يعلن رفضه للحشد الثائر المتحلق من حوله ، كان أبو روبين ، بلحمه ودمه ، يقبل من بعيد ، راكبا فرسه الحمراء ، وبندقيته تطل من وراء كتفه . وتطلع الرجال اليه فى دهشة وعجب، وجمدت أيديهم على أسلحتهم ، واشتدت دهشتهم حين رأوا اليهودى المعتدى على صالح ، وقد ربطه أبو روبين فى ذيل الحصان وراح يعدو واليهودى من خلفه يلهث ، يكاد وجهه ينفجر ..

ووقف أبو روبين بعيدا ، ونزل عن فرسه ،وعلق سلاحه بسرج الحصان .. وتقدم ، واحساس بالذل يطل من عينيه ، وانتظر حتى توسط الحلقة ، ثم القى السلام فى خشوع . ورد لطفى عليه السلام .. ولم يرد أحد غير لطفى !!

وأظهر أبو روبين دهشته من وقاحه تابعه ، قائلا : انه يهودى قذر .. كيف يجرؤ على ضرب سيده ، الذى نعيش فى حمايته !!من نحن حتى نضايقكم فى دياركم ؟ . أما يكفى هذا الكرم منكم الذى يغمرنا .. لابد أن أقتل هذا الوغد بيدى .. هذا جزاؤه العادل ..

وأسرع أبو روبين الى بندقيته ، فاختطفها ،ولكن اليهودى الآخر، كان قد نزع يديه من قيدهما بذيل الحصان ، وهرع متلهفا الى قدمى لطفى يقبلهما ويمرغ وجهه فى التراب ويسأله حمايته من أبى روبين. وأقبل أبو روبين وقد سدد البندقية الى جسد اليهودى الراكع

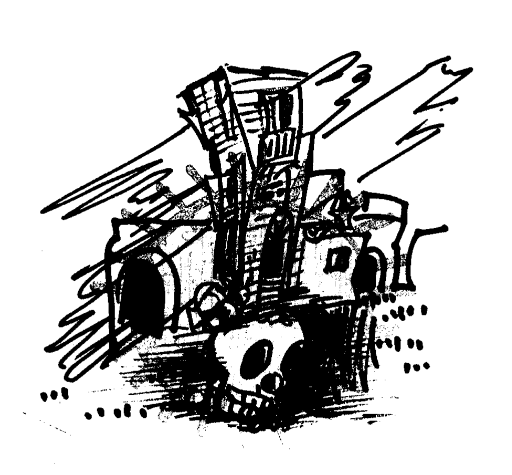


على قدمى لطفى فوضع لطفى يده على فوهة البندقية ، وهو يقول : دعه يا أبا روبين ·· أن صالحا لم يمت ، وعندما يتم شفاؤه سيتولى هو تأديبه !! فقال أبو روبين ، ونظراته تلمع بالفرح : حمدا لله ·· ولكن لابد من تأديب هذا الكلب حتى يعرف قدره !! وهوى بالسوط فوق الجسد الذى يتلوى على الارض محتميا بلطفى ، الذى وجد نفسه فى موقف يحول فيه بين الجانى والعقوبة ·

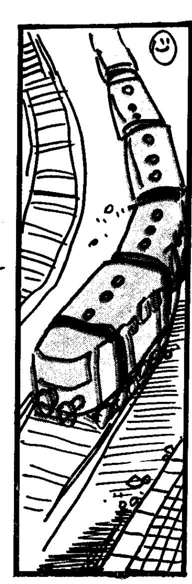
ومضى شهران ·· شهران لا قيمة لهما فى عمر الزمن ·· وأقبل أبو روبين هذه المرة فوق سيارة ومعه رجاله وهاجموا بيت لطفى ·· قتلوا صالحا ·· وقتلوا أم هشام وفر لطفى برصاصة فى فخذه، وطفله الرضيع بين يديه ·

وتذكر الرجال وهم يرجونه أن يزحف بهم الى وكر أبى روبين ، يوم أصيب صالح وهو يحول بينهم وبين ما يريدون ، لان العرب

لا يغدرون !! ومسح دمعة سخينة تسيل على وجهه المتغضن ، ومازال الذكريات تطارده ٠٠ ولكنه فوجيء بوحيده هشام ، يقعد فى السرير فانزعج الشيخ على ولده وقد ظن به ما يضايقه ولكنه رأى على وجه الفتى ابتسامة تبدو هادئة رزينة على نور الفجر الزاحف ٠ وقال الشيخ : ماذا أيقظك يابنى ! قال هشام وهو يفرك عينيه ، وقد تهلل وجهه : لقد حلمت أننى نجحت ٠٠ يا أبى !! ٠



للحكايـة بقيـة!



كان رصيف محطة « سيدى جابر » ينافس الشاطىء الذى غادره منذ ساعات فى زحامه وصخبه ، وكان عليه أن يراقب الطفلين والحقائب والأشـياء التى استقلت بنفسها فى طرود صغيرة كمظلة الشاطىء وكراسـيه . ويكفى نجوى أن تعنى بالرضـيع ، والخـادم الصغيرة تعنى بنفسها . وعاد عبـد الله يحصى الحقائب بعينيه للمرة الثالثة ، ويتثبت من وجود ولديه حماس وعادل ومن اسـتقرار قبعتيهما القش فوق رأسيهما — برغم اقبال المساء اذ ضاقت عنهما الحقائب — وهمس لزوجته كأنما يخشى لفت الأنظار الى مخاوفه :

العيال .. والزحام .

وأومأت برأسها ايجابا وهى تداعب شـعر الرضيع بأناملهـا ، والتصقت الخادم الصغيرة بالطفلين فصازوا طابورا بين صفين من الحقائب والطرود . وحين التقطت عيناه الضوء المحدب المنبعث من شباك التذاكر استراح لعدم الزحام أمامه وهرول فى اتجاهه كأنه

مسحور . فلم يفطن للشرطى الواقف تحت عمود النور فى زاوية من الشباك وقد اثبت كعب بندقيته بين قدميه وضم يديه فوق فوهتها وراح يراقب المسافرين بنظرة فاترة حمراء بفعل السهر أو ما يتعاطاه مع رفاق الرصيف من عمال المحطة حين يخلو لهم وجهه آخر الليل . وقد أدرك بعد لحظات كم هو ساذج . فلو كان فى التذاكر بقية لما بدا الشباك خاليا الآن وقد أوشك القطار أن يصل !! وعلى الرغم من انه قدر هذا الموقف سلفا فانه صدم به . وتلكأ امام الشباك فى نصف دائرة راح يقطعها حسبانها زوايا مضلعة . والآن لم يعد الا أحد حلين : الركوب دون تذاكر ودفع الغرامة . أو البحث عن تذاكر السوق السوداء . ونفخ وهو يفكر فى أهون الشرين . واستنكف ان يخرج على النظام فيقتحم بأسرته عربة ليس لهم فيها مكان . بل تمادى فى تخوفه حتى تخيل أنه من الممكن ان يطردهم عامل التذاكر فى أول محطة !! وتندى جبينه وهو يرى نفسه موظفا يوشك ان يعد بين الكبار فى « الادارة » ويعرض نفسه للطرد من موظف صغير لايسمح لمثله بالدخول عليه دون اذن سابق مع ذكر الأسباب . وتذكر كلمة رئيسه المدير العام حين كان يترضاه اذ تخطاه فى الترقية بالاختيار : انت ياسيد عبد الله أدارى ضليع ، ولكن ينقصك روح المغامرة

– وما جدوى المغامرة فى عمل يقوم على القوانين ، ولا مكان فيه لغير النظام ؟

– لابأس .. وأنا اعنى بالمغامرة نشاط الخيال .. وعدم العبودية للواقع المفروض . ومع ذلك أعدك بألا يخطئك الاختيار فى العام القادم .

والآن .. هل يبدو الحل الاخر أقل احتمالا للضرر ؟ من أين له ان يعرف كيف تباع تذاكر السوق السوداء ؟ مرة واحدة حين كانت نجوى خطيبته .. منذ عشر سنوات اشترى تذكرتين امام سينما كايرو . وقد عرضهما البائع عليه صراحة امام الشباك ، فاشتراهما اعجابا بجسارته واظهارا للحرص على ارضاء الخطيبة .

ولكن .. هنا .. وفى الدقائق الباقية عن وصول القطـــار كيف ينتهى به الموقف ؟ لقد فكر فى الأمر قليلا وهو يســـتحم مودعا شاطىء المندرة ذا الرمل الفضى ،ولكنه طرحه عن نفسه حتى لايتكدر فى آخر ايام الاجازة .. وظن ان الأمور ستمضى كمـا يمضى كل شىء .. بقوة الدفع .. ولكن .. فرق كبير الآن بين ان نفكر فى الشىء .. وأن نجتازه !!

ووجد زوجته أمامه تقطع عليه نصف الدائرة التى يتارجح بين خطوطها . وظهرت الدهشة فى عينيه وهو يعود من عدو ، خلف حلول الموقف . وأوشك ان يلومها اذ تركت الأطفـال والامتعة ، ولكنها سبقت ملامته . وأوشـكت ان تبدأ فى تأنيبه لانه أهمـل نصحها ولم يحجز فى الديزل للعودة من يوم وصولهما ، فقال لها مترضيا وهو يتأبط ذراعها الخالية من حقيبة يدها :

– ولايهمك .. اذا لم نركب بمنتهى الراحة ســنأخذ تاكسى وحدنا .

– لايمكن .. الطريق الصحراوى مقطوع والدنيـــا ليـل .. والطريق الزراعى زحمة وكل يوم حوادث .

– العمر واحد .. ولايهمك .. تعالى ..

كان الحوار يدور أمام الشرطى الواقف تحت المصباح – ولكنهما لاهتمامهما بما يقولان كانا فى شـغل عمـا تنطق به مـلامحه – فالتقطت اذناه المشرعتان حديثهما ، وانتظر ان يلتفتا اليه ، فلما لم يفعلا ، حاول أن يتلطف وقد آنس من الرجـل هدوءا وخفـوت صوت ، فقال متظرفا :

– عدم المؤاخذة يا أستاذ .. حضرتك رايح مصر ؟

– ان كان لنا نصيب

– ان شاء الله يكون

– يبدو انه لم يشأ ، لأننا لم نجد تذاكر .

وارتفعت يد الشرطى تداعب السلسلة المتدلية من جيب سترته. واحس عبد الله احساسا غامضا بمعنى حركة السلسلة . وفسر

على ضوئها تدخل الشرطى فى الحديث ، وخاف ان يتميع الموقف فقال مندفعا :

ـ هل اجد عندك تذاكر ؟

وابتلع ريقه وأحس باندفاعه · وخاف أن يخطىء ظنه فى الشرطى فيتعرض لسخريته أو تأنيبه ، فاردف :

ـ ··· وتكون متفضلا ·· ولك الشكر ·

ولكن الاخر كان ابعد مايكون عن فهم المرمى من الاضافة الاخيرة، فقال منطلقا من أسلوبه الخاص دون ان يبذل جهدا فى تتبع افكار محدثه :

ـ لاشكر على واجب يا أستاذ ·· فيه تذاكر للمضطرين واصحاب المصالح ·

ـ عندك !؟ ·

ـ انا شرطى يا أستاذ ولا شان لى بالركوب والنزول ·· هناك عند رئيس الحمالين فى أقصى الرصيف ·

وفكر عبد الله لحظة ··

ـ هل تأتى معى اليه ؟

ـ لاشأن لى بالتذاكر كما قلت لك ·· انا نصحتك فقط ·

وهمست نجوى :

ـ هيا نذهب الى كشك رئيس الحمالين ·

ـ والاولاد ؟

ـ لاخوف عليهم · لقد اوصيتهم الا يبارحوا الامتعة مهما تاخرنا ·· هيا ·· القطار يوشك ان يصل ·

ونظر اليه الشرطى نظرة مشجعة واستحثه قائلا :

ـ اذهب يا أستاذ قبل أن تنفد التذاكر ·

وبعد دقائق كانت التذاكر وباقى الورقة المالية ذات العشرة الجنيهات مستقرة فى جيب عبد الله ، واستراح كثيرا حين وجد رئيس الحمالين قنوعا فى نسبة الزيادة التى فرضها على ثمن التذكرة ، ولكن هذه الراحة لم تدم طويلا ، اذ داعبه وسواس

خبيث ان تكون التذاكر قديمة أو زائفة فلا يلقى فى القطـــار غير السخرية والمساءلة ، واستفحل قلقه حتى افضى به الى زوجتــه ، فلامته باسمة وهى تخطف التذاكر من يده :

ـ كفاك وسواسا · السوق البيضاء ليست أقل غشا وشراهة ، بالعكس ربما كانت الأبواب الخلفية اكثر صراحة فى التعامل لأنها ليست مضطرة للمجاملة ، ومع هذا ··

واتجهت من فورها ـ وهى تجره من يده ـ الى شباك التذاكر ، فأطلعت موظف الشباك على مافى يدها · فأخبـــرها ان تذاكرها صحيحة ، وابتسم · فدهش عبد الله لابتسامته وعدم دهشته ، ولكن نجوى لم تترك له فرصة ··فعادت تجره متلهفة لتعد اسرتها للركوب ·· فقد أقبل القطار ·

واخيرا جلس فى مقعد وثير من مقاعد الدرجة الثانية ،وجلست نجوى الى جانبه ، من جهة الشباك ،وراحت تناغى الرضيع تتشاغل به عن ضجة الزحام ، واخذ الطفلان والخادمة اماكنهم المقابلة على حين رصت الحقائب والطـرود فى الطـرقة وفوق الأرفف ، وحين تحرك القطار تنفس الناس الصعداء وأيقنوا انهم بالغون بيوتهم بعد ساعات قليلة فنعموا براحة اليقين · وانتشر الضوء الأزرق الخافت فى العربة ، وسكنت الأصوات فلا تسمع الا ايقاع العجلات الرتيب فوق القضبان · وكان من حسن الطالع أن هذا القطار لن يقف فى الطريق ، فهو قطار خاص اعد لتخفيف الضـــغط عن القطـارات الدورية ، ونعس الطفلان وكانت الخادمة تحاول ان تقاوم النوم ، على حين اخذ عبد الله يقلب صحيفته فى الوقت الذى كان متشاغلا فيه عما امامه · كان يراجع فى ذهنه حسابات المصيف : كم انفقوا وكم بقى ، كما كان يحاول ان يرسم لنفسه صورة اليوم الاول فى عودته للعمل بعد العطلة · كم يريد ان يتحرر من الروتين المفروض والخضوع الأصم للوائح · متى يزاول نشاط الخيال ··أو المغامرة، كما تمنى رئيسه منذ شهور ؟! ·

واختلف ايقاع العجلات ، وتحـول الى دوى وطنين ، فقـدر ان

القطار يجتاز كوبرى كفر الزيات ، الوقت يمضى بسرعة ، بعد نصف ساعة نكون فى طنطا ، وحين نغادرها نستروح نسمات القاهرة .. اشتقنا والله .. حتى لحرها وزحامها .

— لايتحرك احد .. لايتحرك احد !!

انطلق التحذير مرتين متتابعتين من مكانين متباعدين كان احداهما طلقة رصاص والأخرى الصدى . ولم يفهم عبد الله شيئا . ويبدو أن أحدا آخر لم يفهم ، فقد ران صمت مخدر ، وأول خاطر تسلل الى نفسه ان الشرطة السرية تتعقب مجرما أو مهربا وتريد ضبطه ، ومع استراحته لهذا الخاطر احس بشىء من الخوف على اطفاله ، فقد يعمد الشخص المقصود الى المقاومة أو اطلاق الرصاص . وأوشك ان يجذب ولديه النائمين الى حجره ، ولكن صدى التحذير القاطع جعله يتخشب ويعيد تقدير الموقف قبل ان يلفت اليه الأنظار . ومال برأسه متطلعا الى أمام راصدا الباب الموصل بين العربتين فوجد جسما عملاقا يغلقه ، فى يده اليسرى حلقة قيد حديدى تتدلى منها سلسلة القيد وحلقته الاخرى ، ويبرق فى يده المطلقة نصل طويل حاد . وبلا ارادة نظر خلفه فوجد عملاقا اخر — بغير قيد — يغلق بهامته الباب المقابل !! .. ولم يفهم شيئا ، ونظر الى الركاب المجاورين فوجد معنى الرعب دون فهم .

وتسلل ثلاثة خفاف الأجسام من تحت ذراع العملاق فانسابوا كالأفاعى بين المقاعد واذ اقتربوا من الركاب وضح الشر فى عيونهم كما ظهرت آثار التشوه بالطعنات واضحه فى الأصداغ والاعناق والجباه ، وصرخ اوسطهم . وكان قصيرا تميزه طعنة طولية فوق الحاجب :

— الكلب الذى بصق فى وجهى يقف حالا .

ومضت دقيقة ولم يقف احد ، بل بدا الامر وكانه كابوس فلم يصدق احد ما يحدث أو يسمع لانه لم يفهم له معنى ، الا ذلك الذى بصق ان صحت الواقعة بالطبع . واستفز الصمت المهاجمين الثلاثة ،فراحوا يرددون فى هوس وهم يحملقون فىوجوه الجالسين:

ـ الذى بصق يقف ٠

واتجه القصير فى خطوات قافزة نحو كهـل فى الخمسين مورد الوجه مرجل الشعر ، يرتدى ثيابا بلدية نظيفة تضمه بين اعيان الريف ، فأمسكه من عنقه وهزه بعنف :

ـ انت !! ٠٠

فقال الكهل بين اللين والحزم :

ـ بأى حق تمسكنى هكذا ؟

واحس الآخران ببوادر المقاومة فى نبراته وتخلخل الرعب فى عيون الجالسين ، فأقبلا لاعانة القصير . وفى لمح البصر كان ثلاثتهم يجرون الرجل عن مقعده جرا الى طرقة العربة ،وهو يقاومهم بحذر معلنا انه لم يفعل شيئا ٠ وضغط العملاق الآخر بزمام العربة الامامى.

ـ ولد ياقاضى ٠٠ اتركه ٠٠ الاخر يلبس ازرق ٠

فقال القصير :

ـ لن اتركه ٠

وقهقه العملاق الاخر على الباب الخلفى وقال بوحشية :

الكل سيضرب ٠

وعاد القصير يزمجر متشجعا :

ـ انه هو ٠٠ الالوان تتشابه فى الظلام ٠٠ لابد أن يدفع ثمن بصقته ٠٠ سيعترف ٠٠ فقال الكهل وهو يحـاول الا يستفزهم بحركته فيناله الطعن العاجل .

ـ لن اعترف ٠

ـ لقد اعترفت ٠

قالها القصير وهو يسدد الى بطنه لكمة تاوه لها الكهل الريفى واظلمت عيناه فحاول ان يستند الى مقعد قريب ،ولكن الآخرعاجله باخرى جملته يعدل عن محاولته ويترك نفسه هدفا للكمات ٠ هذا والعملاقان مازالا على البابين تلمع النصال في أيديهما ٠ ويهتفان باصوات خشنة :

ـ هس ٠٠ اخرس ٠٠ لايتحرك احد ٠

تم الامر فى سرعة خاطفة · ولكن حتى هذه الدقائق القليلة كانت كافية لادراك مدى ما تتعرض له العربة من خطر · وعجب عبد الله من خلو العربة من الشرطة ، واطمئنان المهاجمين وعدم تعجلهم كأنما امنوا المفاجأة · ووجد اسئلة كثيرة حائرة تملأ رأسه · اذ كيف تجمع مثل هذا العدد من الشذاذ فى مكان واحد وكيف تسنى لهم الانفراد بالعربة · وكيف تمت حكـــاية البصقة ، وهل هى حيلة لسلب الوجيه الريفى ولماذا هو بالذات ؛ وتطلع الى نجوى فوجدها تمسح ظهر الرضيع وتتمتم بوجه مخطوف · أما الصغيران فقد راحا فى نوم عميق فلم يدر ايوقظهما فقد يستدعى الامر محـــاولة الهرب ، أو يتركهما فيجنبهما الفزع ويترك الامر للمقادير ؟!

وهتف فتى فى منتصف العربة متشجعا بنظـرات التحفز التى بدأت تظهر على بعض الوجوه :

- عيب يارجال ·· الرجل مثل والدكم ·

فاتجه اليه القصير من فوره وهو يرعد :

- مثل والدك أنت ياكلب ·

وألقى بنفسه عليه وأنشب مخالبه فى عنقه وهو يدفع به نحو شباك العربة يريد القاءه خارجا ، ففزع الجلـوس اجمعين ، حتى أولئك الذين هربوا بنظراتهم من قبل راضين عن اكتفاء الشرذمة باصطياد الكهل ، فقاموا يعترضون النافذة ، وفكر احدهم فى جذب جرس الانذار أو فرامل الطوارىء ، ولكن فتى اخر من المهـــاجمين عاجله بلكمة فى جانب عنقه جعلته يتصلب · على حين هرول الثالث الى العربة الأخرى ، ولم تمض لحظات حتى أقبل عدد وفير آخر تلعب العصى فى سواعدهم كالمراوح وتبرق النصال كالمراوح !!

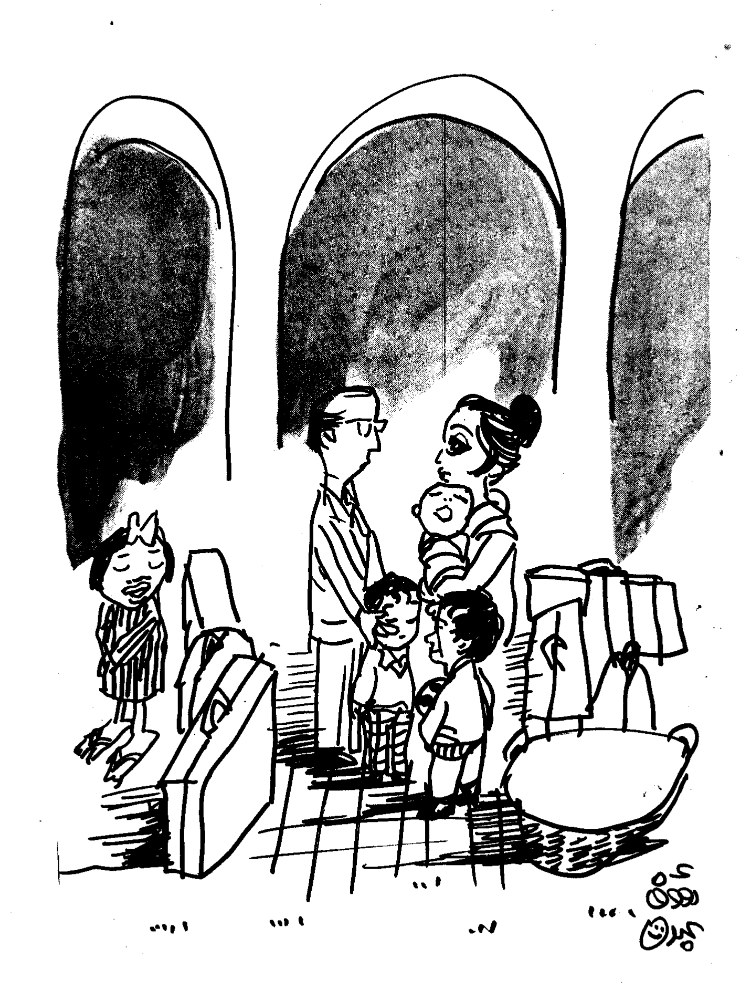
وقبض القصير على ناصية الكهل ودفعه تحت اقدامهم وهو يقول:

- هذا الذى شرفنا ببصقته على الرصيف ·

وقال من يبدو عليه انه زعيمهم بفظاظة وهو يغمز الكهل بقبضته:

- أنت ·· لا داعى للانكار ·

فقال الكهل بين الاستهانة والتسليم :



ـ نعم ٠٠ انا ٠

قال الزعيم وهو يشير الى رفاقه :

ـ لماذا بصقت علينا ؟ اتظن اننا حثالة البشر ٠

وصمت الآخر ٠ فاستحثه الزعيم بلكمة صغيرة فى ذقنه ٠ فقال وقد اوشك ان يفقد معنى الخوف :

ـ انكم على كل حال لستم احسن البشر ٠

ـ كيف ٠٠ الا ترى شجاعتنا ؟ من الذى يسيطر على العربة الآن؟

ـ لم تكونوا كذلك على الرصيف ٠ كان عسكرى بشريط واحد يرعبكم جميعا ٠

ـ ها انت ايضا تستهين بالعساكر وتفكر بعدد الاشرطة ٠٠ سنجعلك عبرة ٠٠

ـ هيهات ٠٠سيقف القطار حتما وتحاسبون على ماتفعلون الان٠

ـ ومن الذى يحاسبنا ؟

ـ الشرطة طبعا ٠

ـ لا شأن لك بالشرطة ٠٠ انت استهنت بها الآن ٠٠ والشرطة اصدقاء حميمون ٠

ـ اصدقاء لكم انتم ؟

ـ بيننا معاملة على نحو ما ٠٠ لايهم نوعها ٠٠ احيانا يقتل بعضنا بعضا بدوافع الاعجاب ٠٠ أو المنافسة ٠٠ أو الكراهية ٠٠ لولانا ما كانت شرطة ٠٠ ولكن انت ٠٠ سنقتلك حقدا ٠٠ ونسلبك حقدا ٠٠

ـ الشعور متبادل ٠

واستشاط الزعيم غضبا فاتسع منخاراه وتصبب جبينه عرقا ، وقال وهو يجمر :

ـ اتجرؤ ايها الوغد ؟ ٠٠ خذ

ولكمه بركبته فى وجهه وهو يحاول النهوض ، ثم عاود لكمه فى بطنه حتى عاد يترنح ، وصرخ الفتى الذى تدخل سابقا وقد فقد صوابه ؟

ـ ابى .. لن اتركه يموت ..

واهتزت قلوب الركاب ، فما كان احد يحسب الفتى الذى تعرض للالقاء من شباك العربة بابن لذلك الكهل . ولم يعد الصمت محتملا بعد صرخة الفتى . ولكن القصير رفع صـــوته ليغطى بضجته على ثورة المشاعر :

ـ لقد أصابت بصقتك عينى ، وتلك اهانة لايغسلها الا الدم . وستخرج مافى جيوبك هنا الآن لألقى بك من النافذة نظيفا خفيفا.

فقال الكهل ولم يفقد ثباته :

ـ الموت لقاء بصقة !!

ـ الموت ثمن احتقارك لنا .

وتعمد الكهل الريفى ان يداور ويطيل المحاورة . لعل احدا يهب لنجدته . ومد الاخرون فى حبل الصبر ايمانا بقوة سيطرتهم على العربة . وثقتهم بأن احدا لن يقف الى جانبه بل لعل هناك ارتياحا عاما لاكتفاء الشرذمة به ككبش فداء . قال الكهل :

ـ ولكنك تحقد علينا كما ذكر كبيركم الآن ... فهل تستحق انت الموت ايضا لقاء احقادك ؟

ـ لاتحاول .. انت لاتملك ان تحـاكمنا الان .. هويتك .. .. نقودك بسرعة .. وساعتك .

ومضى الكهل خطوة اخرى وهو يطلق طلقته الاخيرة :

ـ اتريد معاقبتى على هفوة . ام تجريدى من مالى ؟

ـ كليهما !!

ـ ورفاقك .. هل يوافقون ؟

وهتف احد العملاقين على الباب :

ـ ثيابه تناسبنى .

وهتف الاخر :

ـ لاتنس علبة سجائره .. انها من الذهب ..

فعاد الكهل يقول بثقة من اصبح لايعبأ بشىء :

ـ فتشنى فخذ ما تشاء ، ولكنى أحذرك من هؤلاء .

قال الزعيم :

ـ تعنى ولدك ؟! انه بعد القائك من النافذة لن يجرؤ على التفوه بكلمة ، وحين يصل القطار ويقف ولدك بين يدى الشرطة سترى أنه لن يعرفنى ولن يجرؤ على الاشارة الى وسأتمتع بالبراءة . وربما أطالب بتعويض .

قال الكهل ساخرا :

ـ رد شرف !!

ـ ولم لا ؟؟!

ـ ولكنك نسيت أن كل من فى العربة يضمر نحوك مثل ما أضمر .

قال القصير :

ـ ولكنهم لم يبصقوا على وجهى .

ـ سيبصقون غدا على جثتك وهى ملقاة تحت الاقدام .

وتقاطر العرق أكثر من جبين الزعيم ، ومسح العربة بنظرة نارية ازدادت لهيبا حين اصطدمت بالاحتقار الكامن فى النفوس ، وكان الفتى ما يزال يرجف ومن حوله يحاولون تهدئته وتطمينه على والده . فصرخ فيهم الزعيم محذرا من التجمع حول الفتى :

ـ كفوا عن هذه السخافة .

ولكن أحدا لم يستمع اليه ، وراحوا يدلكون أطراف الفتى . ويرشون وجهه بالماء ، وأخذ أحدهم يؤذن فى أذنه بصوت خافت ، والفتى قد اصفر لونه وتشنجت أطرافه وانضمت شفتاه فى ألم مميت .

وجعر الزعيم :

ـ اذن .. سيعمم الحكم ، سنأخذ كل ما معكم .. جميعا ..

فنهض الكهل متحديا وقد آنس اقتراب المقاومة الجماعية من الركاب :

ـ انها عملية سلب فى أساسها . والبصقة المزعومة مجرد تعلة . وأحب أن أخبرك أن البصقة شرف لا ادعيه .

ـ يعنى !!

ـ يعنى ٠٠ لم أبصق ٠٠ ولكنى أبصق الآن على لصوصيتكم ٠

قال الزعيم باستهانة :

ـ ولو ٠٠ ستعاقب ٠٠ وسترتد بصقاتك الى وجهك مادمنا نملك كل شيء ٠

ـ وأنا أيضا أقول لك : ولو ٠٠ لابد أن توضع الامور فى حجمها الحقيقى ٠٠ وحين يحدث ذلك لن تزيد عن متشرد يصرخ فى يد شرطى يصفعه على قفاه ٠

ـ ليست هذه آخر أفكارك الحمقاء ، ولكن ٠٠ حدثنى ٠٠ ماذا يهمك من ذلك مادمت سالقى بك من النافذة الآن ؟

وجاء صوت متوتر بالانفعال والتردد :

ـ ولكن هذا لا يجوز ٠

وصرخ القصير ، على حين التفت الزعيم ، ومحق مصدر الصوت بنظرة مفترسة :

ـ من المعترض ؟

وعاد الصوت بعد لحظات قصار وهو أقل ترددا :

ـ لستم أسودا ٠ ولن يكون الفريسة ٠

ـ تعـــال ٠

وأشار القصير الى زعيمه اشارة ذات مغزى ، فتركه له ، فاتجه اليه من فوره وجذبه من مقعده ، ووجه لكمة الى أنفه أطارت النظارة الطبية عن وجهه ، وأيقظت الصبيين واطلقت صوت نجوى بالصياح وطلب النجدة ٠

وانحنى عبد الله يبحث عن نظارته وهو يتوقى بيده الاخرى لكمة متوقعة ، وقال باصرار :

ـ نعم ٠٠ هذه عربة لها نظام وليست غابة ٠

وجاءته اللكمة الاخرى فى موعدها تماما مقترنة بالحجة :

ـ وما دخلك أنت بما يجرى فيها ؟

ـ انه عمى أيها الوغد !!

ـ ما شاء الله ٠٠ ابنه ٠٠ وابن أخيه ٠٠ هيصة ٠٠ عربة العائلة

ونحن لا ندرى ٠٠ (ثم أضاف بعد لحظة صمت كانت عيونه تدور فى محاجرها كأنها من زئبق) ٠٠ فلوسك ٠٠ هويتك ٠٠ ساعتك ٠٠ خلصنا ٠٠

ولمح نجوى ، فاستقرت عيناه قليلا ، ثم عاد بلهجة متشددة :

ـ وأنت أيضا !! ٠ هيه ٠٠ أنا أعرف أين تخبئ النساء الحلى والنقود ٠٠ سأعطى نفسى حق التفتيش ٠

وفزعت نجوى وانطوت على رضيعها مذهولة ، على حين صرخ عبد الله :

ـ اخرس يا وغد ٠٠ سأنهش يدك قبل أن تلمسها ٠

كان النقاش واللكم قد توقفت مؤقتا بين زعيم الشرذمة والكهل الريفى ، انتظارا لما يسفر عنه التطور الجديد فى الركن الآخر ، كذلك انتقلت النظرات الى موضع الالتهاب ، الجديد ، ولم يرج أحد خيرا لان عبد الله بدا للركاب نحيلا خائر الصوت ، وكانت نظارته الطبية تجسم محدودية حركته وعجزه ، وحين وجه اليه القصير لكمة ثالثة أحس الكهل بمسئوليته عن مصيره المنتظر ، فحاول أن يتحرك نحوه ، ولكن الزعيم حال دون لقائهما بضراوة ، وقبض على عنق الكهل بغير رحمة ، فهتف بصـــوت مختنق وهو يحاول أن يخلص عنقه من يد الآخر :

ـ يا عبد الله ٠٠ احذرهم ٠٠ صبرك ٠٠ صبرك يا عبد الله ٠

فصرخ عبد الله متحديا وهو يندفع نحو القصير ويوجه اليه ضربات بدت طائشة ضعيفة :

ـ لا صبر بعد الآن ٠

وتلفت القصير حواليه ٠ لقد بدأ يتردد ٠٠ لم تعد نظراته مقتحمة متوقحة ٠٠ انه يخشى أن يهاجمه أحد من خلف وهو مشغول بالتمرد الجديد ٠ وأحس العملاق الذى يغلق الباب الامامى بتردد القصير ، فتقدم لمساندته واثقا من تأثيره السريع ٠ وفى قفزة واحدة كان قد احتضن عبد الله بين يديه وراح يقصيه وهو يردد :

ـ صاحب الشان يطالبك بالصبر وأنت ملعون ٠

فقال عبد الله وهو يحاول التخلص دون جدوى :

ـ ملعون انت وأجدادك ·

وحـــدس الكهل مغبة تبادل الشتائم · فهتف :

ـ صبرا يا عبد الله ·· من أجل زوجتك ·

فصرخ عبد الله مغامرا :

ـ انه لا يجسر على النظر اليها ·

وهنا أطلقه العملاق من بين يديه ودفعه فى ظهره بعيدا وهو يقول باستهانة :

ـ سترى بعينك الآن ·

وتقدم نحو المرأة ، فقدمت طفلها بين يديها تحتمى به ، ولكنها أيقنت عبث المسعى حين نظرت فى عينى العملاق ، وكان زوجها مشغولا بمدافعة القصير الذى يحول بينه وبين العودة الى مكانه بين المقاعد · وهنا ألقت المرأة بالرضيع الى الخادمة الصغيرة ، فتلقفته كأنه كرة ، وهرولت به بعيدا ، وبكى الصبيان وانسحبا فى أثرها . ومن ثم هجمت المرأة فى ضراوة على ساعد العملاق فانشبت أظافرها فيه ، وتلقف أسنانها اصبعه · وحاول أن يخلصها من فمها ولكن فكيها تشنجا ولم يعد من الممكن افلاتها ، فراح يصرخ متأوها ، وهو يسدد نحو جبهتها ضربات طائشة يحيد بها الالم عن مواضعها ، وقفز عبد الله متخطيا القصير والقى بنفسه فوق كتف العملاق من خلف ، مجازفا بامكان دفعه من النافذة ، وغرس مخالبه فى عنقه وكتفه وأذنه بجنون ، وهنا وثب الكهل على الزعيم وهو يعاجله ببصقة قائلا :

ـ هذه بصقتى اذا شئت ·· أنت الآن تستحقها وأكثر ·

ونهض الفتى وركاب آخرون ، وبدات الكلمات المتبادلة والاوانى والزجاجات الطائرة وامتلات ســماء العربة بالصرخات والتأوهات وطلب النجدة ، واختلط عويل الاطفال بصراخ النســاء بتهديدات الرجال ومدافعاتهم ، واختلط الامر كما اختلطت الاجسام فى تدافعها بين بابى العربة المتباعدين ، والنوافذ المستعدة لنبذ من تضعف

قبضته عن التشبث بأطراف المقاعد ومقابض الابواب · لم يفكر أحد في احتدام المعركة أن يمد يده لجذب فرامل الطوارىء لايقاف القطار، ربما لان كل فريق طمع في السيطرة على الآخر · وحين نال الكلال من الاجساد وكثرت الضربات الطائشة والاجساد المطروحة أرضا مثخنة بجراحها تبين للفريقين أن أضواء القاهرة تظهر من بعيد وأن القطار يوشك أن يهدىء من سيره عند منحنى قليوب · وهنا حاول المهاجمون أن يضربوا ضربتهم الاخيرة ليفوزوا بالغنيمة والفرار كما حاول المدافعون أن يعوقوهم لتتلقفهم أيدى الشرطة في المحطة ! وحين هدأ القطار من اندفاعه عند شبرا تمكن بعض المهاجمين من القفز من النوافذ كخفافيش الليل ، وفي أيديهم بعض الساعات وحافظات النقود ، ولكن الركاب أحكموا التعرض في النوافذ والابواب معرضين أجسادهم للطعن والركل وقد استبد بهم فرح الظفر ·

ووقف القطار أخيرا · وانطلقت الحناجر تطلب النجدة ، وأسرعت شرطة المحطة للسيطرة على الموقف ، واقتيد الفريقان للتحقيق ، وتم التحفظ على سائر الركاب حتى تظهر جلية الامر · وقد عجب المحقق من أن أحدا من العربات الاخرى لم يفطن لمـــا يجرى في تلك العربة المنكوبة ، ولكن العجب كان أكثر حين عرف السبب ، فالعربة الامامية كان بها فرقة موسيقية أخذت في تمرين نفسها وتسلية الركاب فغطت ضوضاؤها على ما يجرى ، والعربة الخلفية كانت عربة ترحيل المتشردين أما التى تليها فقد كان فيها قارىء كفيف عذب الصوت سحر الناس بنبراته فلم يفكر أحد في مغادرتها ·

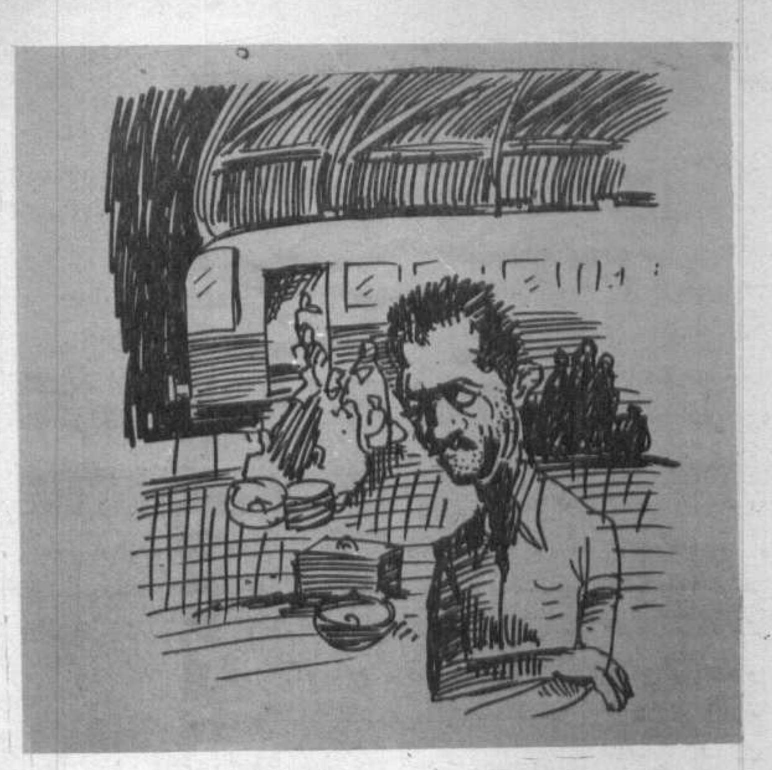
غادر عبد الله وأسرته غرفة التحقيق والى جانبـــه الفتى والكهل الريفي وقد صاروا أصدقاء ، وابتسم الكهل للفتى بمحبة صادقة مقدرة للجميع وساله بغير عجب :

ـ كيف عرفت أنى أبوك ؟

قال الفتى :

ـ ان الضربة التى أصابت رأسك صدعت قلبى فعرفت أنك أبى ·

فقال الكهل مازحا :



ـ مع أننا تزاحمنا بالمناكب عند دخول العربة .

قال الفتى وقد غض وجهه حياء :

ـ كلنا سيصل الى غايته ، فما معنى التزاحم ؟ ولكنا لم نر الاستاذ عند الركوب .

قال عبد الله بغير اهتمام :

ـ كنت مشغولا بأسرتى ، ولم أحصل على التذاكر الا قبيل قدوم القطار بدقائق .. لعنة الله على السوق السوداء .

قال الكهل معترفا :

ـ انى أشهد لك بالشجاعة ولزوجتك بالجسارة .

وساله عبد الله عن حكاية البصقة ، فقال الكهل ضاحكا وكأنه لم يكن فى كف القدر منذ ساعات .

ـ أظنها لم تعد ذات موضوع .. أنا شخصيا لم أكن مسافرا على هذا القطار ، لولا حصولى على تذكرة بمعونة شرطى واقف عند الشباك ..

ومضى عبد الله وهو يفكر فيما فعل ، ويعجب من أين له هذه القوة الخبيثة وكيف واتت زوجته الجسارة ، على أنه كان مطمئنا للنتيجة ، مزهوا بمحاولته المتواضعة لتحطيم الروتين الذى التزم به فى حياته دون ارادة حقيقية فى التزامه ، وتخيل ما ستقوله الصحف غدا عن الحادث ، وابتسم وهو يرى المدير العام يقرأ اسمه بامعان . ويشهد له هذه المرة بأنه ليس محروما من روح المغامرة .

ولكن السؤال الذى بقى معلقا وأثار قلقه وقلل من فرحة المغامرة هو : هل هناك رابطة بين تذاكر السوق السوداء ونظرة الشرطى المخدرة وابتسامة عامل الشباك وقناعة رئيس الحمالين ، وبين سوقهم الى العربة الفخ ؟

وحين أفضى بقلقه الى نجوى ، ابتسمت له ، وقد ابتدأ تقديرها له يزداد ، وان رغبت فى مداعبته فقالت :

ـ لا تزال تطرح تساؤلات بعيدة الاحتمال شأن موظفى اللوائح عباد النظم الادارية مع أن سؤال البداية السهل هو : أين كان حرس القطار ؟ ومن الذى أعطى المتشردين اشارة الهجوم ؟!!

الرسوم الداخلية : للفنان الاستاذ رءوف عبده

محتويات الكتاب

****

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٠/٢٧٤٧

الترقيم الدولى ٨ ـ ٣ ـ ٧٣٢٧ ـ ٩٧٧ ISBN

كتب للمؤلف

اولا : بحوث ودراسات :

١ ـ عز الدين بن عبد السلام ـ مكتبة وهبة · القاهرة ١٩٦١

٢ ـ الواقعية في الرواية العربية ـ دار المعارف · القاهرة ١٩٧١

٣ ـ كليوباترا في الادب والتاريخ ـ الهيئة المصرية العامة · القاهرة ١٩٧١

٤ ـ الاسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ ـ مكتبة الامل · الكويت ١٩٧٢

٥ ـ الحركة الادبية والفكرية في الكويت ـ رابطة أدباء الكويت ١٩٧٣

٦ ـ ديوان الشعر الكويتي ـ اختيار وتقديم ـ وكالة المطبوعات ـ الكويت ١٩٧٤

٧ ـ الصحافة الكويتية في ربع قرن ـ كشاف تحليلي ـ مطبوعات جامعة الكويت· ١٩٧٤

٨ ـ مقدمة في النقد الادبي ـ دار البحوث العلمية ـ الكويت ١٩٧٥

٩ ـ الحركة المسرحية في الكويت ١٩٧٦

١٠ ـ فنون الادب ـ دار البحوث العلمية ١٩٧٧

ثانيا : روايات :

١١ ـ **انفاس الصباح** : رواية عن الكفاح والمقاومة ضد الحملة الفرنسية على الوطن العربي ـ الدار القومية ـ القاهرة ١٩٦٤

١٢ ـ **الشعلة وصحراء الجليد** : رواية عاطفية حازت الجائزة الاولى من المجلس الاعلى للفنون والآداب بالقاهرة ـ مكتبة الشباب بالمنيرة ١٩٦٨